مجلة إسلامية ثقافية

رسالة النجف

العدد الثالث عشر

أيار .... آب 2008 - جم 2008م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

محتويات العدد

1	الإفتتاحية	التحرير
2	الدين الحق في نصوص أهل الكتاب	الشيخ حاتم إسماعيل
3	المسيح يبشّر بالمهدي	السيد باسم الصافي
4	الكنيسة في مواجهة العقل والعلم	الأستاذ حسن جابر
5	دعوة الإسلام حكمةٌ وسلام	الشيخ محمد جواد البلاغي
6	الر سول (ص) وأسباب النـزول	الشيخ حسن حيدر
7	الإيمان المستودع وسوء الخاتمة	الشيخ محمد صالح الفقيه
8	العلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي	الشيخ أمين ترمس
9	قاموس الموضوعات	د.حسن جعفر نور الدين

الإفتتاحية

التحرير

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه المجيد: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**.

ترسم هذه الآية المباركة منهج الدعوة إلى سبيل الحق، فتجعل للخصومة آدابًا تدعو الإنسان إلى مراعاتها والتزام قواعدها، بلا تعدٍّ ولا تجاوز، إذ عليه أن يلتزم حدود الحكمة والموعظة الحسنة، فإذا ما جادل فعليه أن يجادل بالتي هي أحسن.

فللخصومة إذًا شروطها بحيث لا تستباح بها كل الحدود... وهذا أمر تقرّره الأديان وتنص عله أدبيات المحاورة، ويعتبره عرف العقلاء...

ولكن، لطالما خرج الناس على المناهج وتجاوزوا حدود الآداب المعتبرة لينصروا آراءهم ومعتقداتهم حتى بالأكاذيب والأباطيل.

وإذا كان هذا الأمر مستهجنًا ومرفوضًا حتى لو صدر من الجهلة، فكيف إذا ما قام به أرباب العقائد والقيّمون على مؤسسات الفكر ووسائط الرأي ووسائل الإعلام؟!

لذا فإننا نستغرب جدًا كل الاستفزازات والافتراءات التي تمارسها بعض وسائل الإعلام الغربية، وبابا الكنيسة المسيحية في حق دين الإسلام وفي حق النبي الكريم ’، بعيدًا عن الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

والعجيب العجيب أن يسمح رأس الكنيسة لنفسه بالتجنّي على نبي الإسلام بغير حق، وهو الراعي لكنيسةٍ لا تخفى سمعتها على أحد من الناس بما كان لها من دور معروف في محاربة العلم وقتل العلماء واضطهاد الأحرار ومحالفة الظلم... مما لا يتسع المجال لذكره وتعداده، لذا نكتفي بذكر بعض الأسماء والعناوين من دون تفصيل ولا تعليق، وهو مع ذلك يغني عن التتبّع والاستقصاء، ويعيد إلى الأذهان صورة التاريخ المظلم للكنيسة المسيحية.

وإليك من الأسماء: جاليلو، وجان دارك، وسافونا رولا...

وإليك من العناوين: صكوك الغفران، ومحاكم التفتيش، والحروب الصليبية...

وبعد هذا فلقائل أن يقول: إذا كان بيتك من زجاج فلا ترمِ الناس بالحجارة.

وهنا يحضرني قول بديع الزمان الهمداني إذ يقول:

كذاك الناس خَدّاعٌ إلى جانبِ خَدّاع	يعيثون مع الذئب ويبكون مع الراعي

وانطلاقًا من هذه القضية رأت مجلة "رسالة النجف" أن تطرح في ملفها الحالي بعض المسائل الهامّة المرتبطة بالدينين الإسلامي والمسيحي، ولكن بلغة العلم، وبأسلوب الحوار الهادئ.

ويهمّنا أخيرًا أن نُعلم القرّاء الكرام بأننا ونتيجة للظروف الصعبة التي يمر بها وطننا لبنان مما ضيّق علينا حدود الحركة وإمكانية التواصل، فقد قرّرنا مرغمين تخفيض إصدار المجلة إلى ثلاثة أعداد سنويًا بدلاً من أربعة.

والله ولي التوفيق

التحرير

الدين الحق في نصوص أهل الكتاب

الشيخ حاتم إسماعيل

الشيخ حاتم إسماعيل

بداية

لا تزال مسألة مقارنة الأديان تثير الكثير من الإشكاليات حول الدين الحق، وقد سعى أتباع كل دين إلى نصرة دينهم، من خلال النصوص المقدسة لدى الدين الآخر، وتجلّت هذه الظاهرة بأبهى صورها بين الإسلام والمسيحية، نظرًا لانفتاح كل منهما على دعوة الناس للإيمان به واتّباعه.

إن من الطبيعي أن يستند المتأخر -في إثبات حقانيته- إلى نصوص الدين السابق، استنادًا إلى أن الدين السابق يشتمل -بشكل أو بآخر- على إرهاصات وبشائر تتحدث عن الدعوة التالية، ما دام الكل يربطون أنفسهم بالله تعالى، وأن الدين كله حلقة مترابطة يكمل بعضها بعضًا.

وهذا ما حصل في المسيحية، التي قامت ركائزها على قوانين ونصوص العهد القديم، وعمل المسيحيون على الاستفادة من هذه النصوص في إثبات صحة ديانتهم.

ونفس الأمر حصل بالنسبة للإسلام المتأخر عن الديانتين، فقد استند في الكثير من المواضع إلى نصوص العهدين لإثبات حقانيته أيضًا، لكن لا بمعنى أن صحة الإسلام متوقفة على تصديق تلك النصوص، بل بمعنى إلقاء الحجة على من يؤمنون بها، بعد ملاحظة الظروف التي أُنزل القرآن الكريم بها، وبيان وحدانية الدين عند جميع الأنبياء (عليهم السلام).

بل لقد صرحت بعض الآيات القرآنية الشريفة أن أهل الكتاب يعرفون نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كما يعرفون أبناءهم[1]، وأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل[2].

موقف أهل الكتاب

وقد ثارت ثائرة علماء أهل الكتاب، وعملوا على تكذيب هذه الحقائق القرآنية، تارة بإنكار إشارة الأسفار المقدسة إلى النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، والتصريح باسمه وصفته.

وأخرى بإثبات أن السيد المسيح (عليه السلام) هو الغاية، وبيده تكون النهاية، وأنه هو الذي يقيم دولة العدل في نهاية الأيام.

وثالثة من خلال إبراز بعض التناقضات المزعومة والموهومة في القرآن الكريم، أو العمل على الإنتقاص من شخص النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، من خلال إبراز بعض المرويات التي ربما تُسيء إلى شخصه الكريم، وهي محاولات يائسة لا تخلو من تصرف وتلاعب غير أمين في هذه المرويات، وليٍّ أعناقها علّها تخدم أهدافهم، أو تكون ذاتها من مرويات مسلمة أهل الكتاب أو ضعاف الرجال، والتي لا تثبت أمام النقد العلمي، ولا تتناسب مع السيرة القطعية للنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله).

أهل الكتاب والنصوص الإسلامية

هذا في الوقت الذي نجد فيه بعض علماء اللاهوت، المسيحي على الخصوص، يعمدون إلى الإستفادة من النصوص الإسلامية في تثبيت أركان ديانتهم. وهذا في الحقيقة من المفارقات الغريبة، لأنهم ما داموا لا يعترفون بقدسية نصوصه، ولا يؤمنون بأنها من وحي السماء، فمن غير المنطقي أن تشكل مستندًا بالنسبة إليهم، يتمسكون به لإثبات مزاعمهم.

والجدير ذكره في المقام أن كثيرًا من استنادات علماء أهل الكتاب إلى القرآن الكريم وإن ظهرت في صورة المجادلة مع المسلمين، إلا أنها في حقيقتها استنادات تأسيسة، يراد بها تقوية معتقد المسيحيين في دينهم، وفاتهم أن ذلك لا يفيدهم شيئًا، لأن فرضهم عدم كون القرآن الكريم وحيًا من عند الله تعالى، وعدم صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله)، سيُفقد هذا المستند أية قيمة تذكر، فلا بد من القول أن مثل هذا الاستناد إنما ينشأ من موقع الضعف، وهذا ظاهر.

ولا يُنقض على هذا الكلام، بأن الإسلام وعلماء المسلمين يستندون إلى نصوص العهدين، في إثبات بعض الحقائق الدينية الإسلامية التي صدع بها النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، لأن الإسلام، وإن أثبت التحريف والتلاعب في نصوص العهدين، إلا أنه لم يفترض عدم صحة شيء منهما، لأن حقيقة التحريف لا تعني إلا التصرّف في الأصل، باللفظ أو بالمعنى، وعليه فيمكن الإستفادة من النصوص الباقية، بعد تمييزها وتمحيصها والتدقيق بها، وبعد افتراض أصل الصحة في أسفار العهدين.

وبهذا ينحل الإشكال الذي عمل بعض المسيحيين على إيراده على القرآن الكريم، حيث حاول الدكتور وليم كامبل، في جوابه على الدكتور موريس بوكاي، أن يثبت أن بعض الحقائق العلمية التي وردت في القرآن الكريم قد ورد مثيلات لها في نصوص العهدين، محاولاً بذلك إثبات صحة هذين العهدين من خلالها[3].

ذلك أن الإسلام لا يقف موقف المعارض لهذه النظريات العلمية على فرض ورودها في أسفار الكتاب المقدس، انطلاقًا من اعتقاد المسلمين بأن أصل الوحي موجود فيه، فإن لازم ذلك أن يقبل المسلمون أن هذه الإشارات من بقايا الوحي الإلهي في الكتاب المقدس، ومن الظاهر أن المسلمين لا يعيشون عقدة تجاه هذه المسألة، كما هو الحال عند أهل الكتاب، بل تشكّل قرينة إثبات أخرى على صدق القرآن الكريم، وعلى أنه وحي من السماء، لفرض

قدرته على التمييز بين الحقائق والأخذ بها، وطرح التلاعبات وتزييفها، خصوصًا بملاحظة عدم اطلاع النبي (صلى الله عليه وآله) على هذه الأسفار، فضلاً عن عدم وجود أية وسيلة في ذلك الزمان، يمكن أن يستند إليها في التمحيص سوى الوحي.

الأسفار القانونية ونصوص أهل الكتاب

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه في المقام، هو: هل أسفار العهدين المسماة بالقانونية هي كل ما ورد من نصوص يمكن الإستناد إليها عند أهل الكتاب، أم أن هناك نصوصًا أخرى، من حقها أن ترقى إلى مستوى المقبولية والقداسة عندهم؟

من الواضح أن ملاك المقبولية والقداسة لا يخضع للأهواء والرغبات والانتقائية، بل يستند أولاً وبالذات إلى مطابقة الواقع والحقيقة، وإلى مدى قربه من المصدر والمنشأ.

وقد اعترف كثير من علماء أهل الكتاب بأن أسفار العهدين قد انتقيت انتقاءً من مجموعة كبيرة من الأسفار، والتي لا تقل أهمية بعضها على أقل التقادير عن أهمية الأسفار القانونية، أدخل بعضها في مجموعة الأسفار القانونية فترة من الزمان، ثم لم تلبث أن أخرجت منها، دون الاستناد إلى مبررات علمية أو موضوعية لهذا الإدخال أو الإخراج، مع العلم أن سائر الأسفار، خصوصًا أسفار العهد الجديد، متساوية -من حيث المبدأ- في الغاية التي كتبت لأجلها، ومن حيث جهالة مؤلفيها، إن لم نقل بأن مؤلفي المنحولات معروفون بنحو أدق من الأسفار القانونية.

كما أن قسمًا من هذه الأسفار -غير القانونية- لم تدخل في قانون العهدين أبدًا، إلا أنها ظلت معينًا مهمًا يستقي منه علماء اللاهوت، في اعتقاداتهم وعظاتهم وتعاليمهم على مدى الأيام.

بل نجد في الأسفار القانونية للعهد الجديد من استند إلى بعض هذه الأسفار، كسفر أخنوخ، الذي استند إليه كاتب رسالة يهوذا[4].

وهذا يدل على مدى الأهمية التي كان علماء اللاهوت الأوائل يولونها لهذه الأسفار، بحيث صارت مستندًا أو مصدرًا، يستقي الكتاب المقدس معلوماته منها.

وتبرز في المقام إشكالية مهمة، تشير إلى السبب الذي جعل هؤلاء العلماء يهملون قسمًا من الأسفار المهمة، ويخفون قسمًا كبيرًا منها، حتى حرمت البشرية من مصادر هامة، يمكن الاستناد إليها والاستفادة منها في مقارنة الأديان، والوصول من خلالها إلى نتائج مرضية.

إلا أن من الطريف أن نجد بعض علماء اللاهوت المسيحي[5]، وفي مقام بيان سر قبول الأسفار القانونية دون سواها، يحاولون إثبات صفة القداسة على هذه الأسفار بأدلة واهية، لا تصمد أمام النقد والتحليل، من قبيل أن الكنيسة قد قبلت أسفار العهد القديم استنادًا إلى ممارسة المسيح والرسل والتلاميذ وخلفائهم.

مع أنه قد تقدم قبل قليل استناد هؤلاء إلى أسفار غير واردة في القانون، وهو تناقض صريح، فإن الاستناد إليها يتضمن صدقها في نفسها، ويجعلها مصدرًا من مصادر القداسة، فتكون أولى من القانونية في القبول والاعتماد عليها، وعدم قبولها يثير الشك في صدقية الأسفار القانونية نفسها، وبالتالي يبقى دينهم خاليًا من المستند أصلاً، ومعه لا يمكن القول بأنه دين مرضي عند الله تعالى، أو أنه قابل للخلاص في الآخرة..

إلا أنهم حاولوا سلوك طريق آخر في ما يرتبط بنصوص العهد الجديد، فقد افترضوا رجوعها إلى أصل رسولي، إما مباشرة أو بشكل غير مباشر. هذا مع اعتراف علماء اللاهوت عمومًا بعدم وجود مثل هذا الأصل بين أيدي الناس، ولا يوجد أي دليل حسي أو منطقي يؤكد مثل هذه الرابطة أو وجود هذا الأصل، مما يعني أنه مجرد أمر افتراضي، لا يرقى إلى مستوى الحقيقة القطعية والواقع الأكيد، الذي يؤدي إلى النجاة والخلاص، وقد عالجنا هذه المسألة في مكان آخر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، وهي التعمية على الحقيقة، وإخفاء نبوة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) والحقائق الإسلامية، الموافقة للحقائق الكتابية، قال تعالى: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً}**[6].

قال أبو علي الفارسي في تفسيرها: أي تبدون بعضها وتكتمون بعضها وهو ما في الكتب من صفات النبي (صلى الله عليه وآله) وتعاليمه وتشريعاته والإشارة إليه والبشارة به[7].

ومما يشير إلى هذه الحقيقة: ما ورد في قاموس الكتاب المقدس عند توصيفه سفر أخنوخ، من أنه مليء بأخبار الرؤى عن المسيا المنتظر، والدينونة الاخيرة، وملكوت المجد، حيث نقل بعض الأوصاف الواردة فيه للمسيا، وملكوته وطريقة حكمه، وهي لا تتناسب والعقائد المسيحية واليهودية القائمة[8].

مخطوطات قمران

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن الإكتشافات المثيرة، من الكنوز المدفونة قرونًا متمادية، والتي ظهرت أخيرًا، خصوصًا تلك التي عثر على جزء مهم منها في مغاور قمران على البحر الميت، وغيرها من المخطوطات، قد أكّدت مضمون الآية القرآنية المباركة وغيرها من الآيات، كما تشكّل قرينة إضافية لصدقية القرآن الكريم في أخباره عن تلاعبات أهل الكتاب في نصوصه المقدسة.

إن المثير للإهتمام في مخطوطات قمران، هو أنها تعود في تاريخها، إلى عصر السيد المسيح (عليه السلام) نفسه، وبالتالي فهي أقدم من كافة نصوص العهد الجديد، من الناحية التاريخية.

وليس هذا فحسب، بل تشكل أقدم وثيقة مكتشفة لأسفار العهد القديم نفسه، لأن ما هو موجود منها بين أيدي الناس متأخر عن عصر السيد المسيح (عليه السلام) قرونًا عدة، وهي -بحسب اعتقاد علماء اللاهوت عند أهل الكتاب -عبارة عن ترجمات للنسخة اليونانية للعهد القديم، والتي يعبّر عنها بالترجمة السبعينية، والتي يعود تاريخها إلى حدود القرن الثاني قبل الميلاد[9]، دون أن تكون الترجمة السبعينية موجودة بين أيدينا أيضًا.

إن هذه المخطوطات مكتوبة باللغة الآرامية والعبرانية، وبالتالي فهي أكثر أصالة في الحديث عن الأنبياء وأسفارهم من الترجمة السبعينية، لوضوح أن بني إسرائيل وأنبياءهم كانوا ينطقون بهاتين اللغتين دون اللغة اليونانية، مع أن المعلوم أن الترجمة مهما بلغت من الدقة والأمانة، فإنها لا يمكن أن تحاكي النص الأصلي في كافة أبعاده وخصوصياته.

بناء على ما تقدم، فإن النسخة المكتشفة في مغاور قمران للعهد القديم وغيره من الأسفار، أولى بالاعتماد والاهتمام والدراسة من النصوص القانونية للكتاب المقدس، التي يعتمدها علماء اللاهوت من أهل الكتاب، ومما يؤكد هذا المعنى أن النسخة المكتشفة للتوراة تتوافق في مضامينها مع النسخة السامرية للتوراة، والتي تخالف النسخة المعتمدة من اليهود والمسيحيين في كثير من الموارد[10].

جماعة المخطوطات

وهذا الأمر يفتح باب السؤال عن الجماعة التي قامت بإخفاء هذه المخطوطات في تلك الكهوف، ومدى علاقتها بالديانة المسيحية أو اليهودية، ومدى إيمانها والتزامها الديني، ونمط عيشها، وسبب إخفائها لها، وغير ذلك من التساؤلات.

إن من المتسالم عليه بين الباحثين، أن الجماعة التي حفظت المخطوطات، هي من طائفة الأسينيين، وهي طائفة مجهولة على وجه العموم، فقبل ظهور المخطوطات كانت المعلومات عن هذه الجماعة ضئيلة جدًا، لم تزد عن محاولات تحليل الاسم وربطه بعالم الشفاء[11].

وبحسب موسى ديب الخوري، فإنهم كانوا يعيشون في جماعات منعزلة متفرغين للعبادة، وأنهم كانوا معروفين بتقواهم وزهدهم، وتكتمهم عن الأسرار، وقدرتهم على الشفاء، والتخلص من الآلام والنجاسة بالتطهر[12].

وأما بعد اكتشاف المخطوطات، فقد افترض العلماء ازدياد معرفتهم بهذه الطائفة، فربطوا بينها وبين أصحاب هذه المخطوطات، وبمقارنة الفترة الزمنية التي عاشت فيها هذه الجماعة، وبملاحظة اقترانها مع ظهور دعوة السيد المسيح (عليه السلام)، فقد افترض وجود علاقة بين الأسينية ونشأة المسيحية[13]، بل طرحت إشكالية علاقة

السيد المسيح (عليه السلام) نفسه بهم، وأنه كان منهم ثم انفصل عنهم[14].

يتبع =

تتمة مقال = الدين الحق في نصوص أهل الكتاب

الجماعة هم العيسويون

إن أصل كلمة الأسينيين هي يونانية معربة من كلمة إسينوس [essenos] أو إسيوس [essaios]، ومن المعلوم أن اللغة اليونانية غير قادرة على النطق بالحروف الحلقية أو الحنجرية، كما أنها لا تميز الحروف الصافرة في اللغات السامية، ومن هنا تعددت الاقتراحات في ترجمة التسمية إلى العربية، حيث ترجمت بـ[الصامتون]، و[الممارسون]، و[الأتقياء] و[الراؤون]، و[المتشيعون]، وكانوا يصفون أنفسهم في النصوص التي اتخذت عنهم وعن نظامهم بـ [الورعين]، و[القديسين]، و[الكاملين][15].

وبملاحظة أنهم كانوا من اليهود ولم يكونوا من اليونانيين، فإن تسميتهم اليونانية مأخوذة عن تسمية عبرية أو آرامية بلا ريب، وعليه يبدو أن أصل كلمة إسيوس [essaios] هو [العيسيون]، أي أتباع عيسى (عليه السلام)، وذلك بملاحظة أن حرف [العين] من الحروف الحلقية، وليس له رديف في اللغة اليونانية أو غيرها من اللغات التي لا تنتسب إلى السامية.

ويؤيد هذا الاقتراح أو الاستنتاج، هو أن الاسم عيسى هو الاسم العربي، الذي ذكره القرآن الكريم للسيد المسيح (عليه السلام)، والعربية والعبرية ساميتان، متقاربتا الحروف والاشتقاقات كما هو معلوم.

كما أن اسم [يسوع] هو الترجمة الحرفية للإسم [jessus] في اللغات اللاتينية، ويقابله في اللغة العبرية اسم [يشوع][16]، وهو اسم لم يطلق على السيد المسيح (عليه السلام) أبدًا.

وبهذا تصبح الإشكالية التي أوردها موسى ديب الخوري حول علاقة السيد المسيح (عليه السلام) بالأسينيين، واحتمال كونه أسينيًا في البداية ثم انفصل عنهم[17]، واضحة المعالم، إذ يكون حق التساؤل هو انتساب الأسينيين للسيد المسيح (عليه السلام) وعلاقتهم به، وليس العكس.

يضاف إلى ما تقدم أن أعظم المعجزات التي جاء بها السيد المسيحِ، عبارة عن شفاء المرضى وإحياء الموتى، فقد [كان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلّم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب][18]، وهي نفس المهمة التي أوكل بها تلاميذه، حين أرسلهم للوعظ في مدن بني إسرائيل، فقد: [أوصاهم

قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا... اشفوا مرضى، طهّروا برصًا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين][19]، وهذا هو ما كان يقوم به أصحاب المخطوطات، كما هو ظاهر من تسميتهم ومن سيرة حياتهم التي تحدث عنها الباحثون.

كما أن أصحاب المخطوطات يرون أنهم قد عرفوا أسرار الكتاب المقدس، دون سواهم من بني إسرائيل، وأنهم قد أخذوها من معلم الحق الذي أطلعهم عليها بدوره[20].

ونجد جذور هذه المسألة في كتابات العهد الجديد القانونية أيضًا، فقد ورد أن تلاميذ السيد المسيح (عليه السلام) سألوه عن سبب حديثه بأمثال مع اليهود، فقال لهم: [لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأما لأولئك فلم يعطَ، فإن من له سيعطى ويزاد، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه][21].

إن كل ما تقدم يدل على أن الأسينيين هم العيسويون، أي أتباع عيسى (عليه السلام)، ويؤيد ذلك اختيارهم حياة العزلة والابتعاد عن الناس والأضواء الكاشفة، بعدما حصل مع السيد المسيح (عليه السلام) وسائر التلاميذ ما حصل، واشتداد الخناق عليهم من اليهود واليونانيين على السواء.

سبب إخفاء المخطوطات

رغم أن علماء أهل الكتاب -من اليهود والنصارى على السواء- الذين وضعوا أيديهم على هذه المخطوطات، لم يكشفوا النقاب عنها جميعًا، رغم كثرة الضغوط والانتقادات الشديدة التي وُجّهت إليهم، فقد اعترف الأب البولوني ميليك أنه وحده قد حصل على 120 مخطوطة ولم يكشف عنها أبدًا. وقال بعض الباحثين أن السبب في عدم نشر الكثير من المخطوطات يعود إلى أنها تمس الإيمان[22].

وفي مقام تبرير عدم نشر المنحولات، وهي الأسفار التي لم تعترف بها المؤسسة الدينية الرسمية اليهودية والمسيحية، وهو سارٍ بحق مخطوطات قمران أيضا، يذكر بعضهم عدة أسباب:

منها: أنها لا تعبّر عن العقيدة الرسمية للكنيسة.

ومنها: أنها تظهر يسوع في غالب الأحيان وكأنه ساحر، صانع معجزات وخوارق، ساعة يشاء، يتحدّى بها الناس، من حين ولادته إلى حين وفاته.

ومنها: أنها تشكّل حجة للمسلمين في صحة ما يتهمون به المسيحيين بأنهم حرّفوا التوراة والإنجيل، بما كتبوا من روايات مختلقة، أضفوا عليها صفة الوحي بغير حق[23].

ومن الظاهر أنه لا يمكن قبول هذه المبررات، لا من الناحية الدينية، ولا من الناحية الموضوعية العلمية.

أما من الناحية الدينية

فلأن الدين والبحث عن الخلاص في الآخرة، يقتضي أن تستند الكنيسة في عقائدها، إلى النصوص التي يفترض أن تكون معاصرة أو قريبة من الحدث، في أقل الفروض، إن لم تكن صادرة من صاحب الدعوة نفسه، خصوصًا وأن الكنيسة الرسمية لا تملك نصوصًا أصلية للتوراة، وما تستند إليه هي الترجمة السبعينية لنصوص العهد القديم كما تقدم، ونصوص العهد الجديد القانوني تستند في مجملها إلى هذه الترجمة، وهذا يفقدها الكثير من المعطيات التي تدعو إلى قبولها، فضلاً عن تصديقها وتقديسها.

هذا بالإضافة إلى تأخر الكتابات القانونية للعهد الجديد، فترة طويلة عن عصر السيد المسيح (عليه السلام)، قد تصل إلى القرن الرابع الميلادي، كما رجّحناه في مقام آخر.

مع أن العقائد الرسمية للكنيسة ظلت قرونًا طويلة رهينة القبول والرفض، ودارت حولها خلافات كثيرة ونقاشات وأخذ ورد، حتى استقرت الكنيسة عليها عبر المؤتمرات والمجامع المقدسة، كما صرحت به مختلف المصادر التاريخية، من كنسية وغيرها.

فلا يصح -والحال هذه- أن تكون الكنيسة ميزانًا للقبول والرفض، لافتقادها السند الكتابي الذي يدعم آراءها ومعتقداتها.

وأما من الناحية الموضوعية العلمية

فلأن ما ورد من تبرير بإظهار السيد المسيح (عليه السلام) مجرد ساحر يصنع المعجزات، منقوض بنصوص الأناجيل القانونية نفسها، التي تركّز في مجملها على صنعه للمعجزات، كما في إطعام الخمسة آلاف رجل -عدا النساء والأطفال- من سمكتين وخمسة أرغفة، ثم بقاء اثنتي عشرة قفة بعد ذلك[24]، ومسألة يباس التينة[25]، وكذلك إحياء الموتى وشفاء المرضى، وإخراج الشياطين بلمسة أو بكلمة، وغير ذلك من المعجزات، فإنها بنفسها تدل على نفس ما ذكره المبرر كما هو ظاهر.

هذا، مع أنهم يزعمون أنه ذو طبيعة إلهية، بل هو الله نفسه عند الأرثوذوكس، والله قادر على كل شيء، فإنه [عند الله كل شيء مستطاع][26]، بل المؤمن أيضًا قادر على كل شيء بحسب الإنجيل، فإن [كل شيء مستطاع للمؤمن][27]، فقد شفى مريضًا بعدما عجز تلاميذه عن ذلك، فسألوه عن سر عجزهم فقال: [لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل قم من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم][28].

فهذا المبرر ساقط من أساسه.

وأما الاعتذار بأن نشرها يدعم حجة المسلمين، حول تحريف أهل الكتاب كتابهم المقدس، فهو مع هجنته وغرابته في نفسه -إذ إن الحقيقة هي المطلوبة في المسائل العلمية، فضلاً عن الدينية، والتي يُبحث فيها لأجل خلاص النفس ونجاتها مع غض النظر عما يقوله الآخرون- لا يمكن أن يبرر إخفاء الحقيقة، التي يُفترض أننا نبحث عنها كما هو ظاهر، لما في ذلك من ضياع لجهود الباحث عنها فضلاً عن مُدّعيها.

ويبدو أن هذا هو السبب الحقيقي الكامن وراء إخفائهم لها وعدم اعترافهم بها، لأن إقرارهم بشرعيتها سيشكل أقوى حجة للمسلمين على صحة الإسلام، كما ورد في التبرير المذكور، لما تحويه هذه الأسفار من إشارات ودلائل تؤكّد المضمون القرآني، سواء بما يتعلق بأنبياء بني إسرائيل أنفسهم أو بالنسبة إلى نبي الإسلام الأعظم (صلى الله عليه وآله)، ودعوته وخاتميتها.

إن ما تقدم يشكل حجة ليس للمسلمين فقط، بل هو حجة لكل باحث عن الحقيقة والخلاص، وهذا بنفسه يشكل إدانة للذين عملوا على إخفائها ومنعها، لما في ذلك من إضلال للناس، ورمي لهم في متاهات الضلال والضياع.

ومن الطريف أن يستفيد هذا المُبرّر من هذه الكتابات، ويرى فيها مصدرًا من مصادر القرآن، التي استند إليها وأخذ بها في بيان آياته ومعتقداته[29]، في الوقت الذي يؤكد الباحثون الكتابيون أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس قد تمّت في القرن الثامن الميلادي[30].

إن هذه الحقيقة إن دلت على شيء، فإنما تدل على صدقية القرآن الكريم، في معلوماته التي أثارها وبيّنها، بعد وضوح حقيقة عدم وجود هذه الأسفار بين أيدي الناس، نتيجة لإخفائها عن مسرح الأحداث. ولو فرض بقاؤها ظاهرة فهي في نصوصها العبرية، أو اللغات الأخرى غير العربية، ولا يمكن فرض استفادة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) منها وأخذه عنها، إذ من الظاهر أنه لم يختلف إلى معلم أصلاً، فضلاً عن أن يتعلم لغات أهل الكتاب، فليس له طريق لمعرفتها إلا الوحي الإلهي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن ما ورد في القرآن الكريم نفسه، يدل على صحة المعلومات الواردة في هذه الأسفار في الجملة، دون أن يعني ذلك صحة كل ما فيها، لكونها مدوّنات كغيرها من المدونات التي تشتمل على الغث والسمين، وهذا يعني أن القرآن الكريم يشكل الميزان الأساس، في قبول المعلومات الواردة فيها أو رفضها، كما هو الحال في المدوّنات القانونية لأهل الكتاب، وبالتالي يعود السؤال المركزي من جديد، عن الداعي إلى إخفاء هذه الأسفار، وعدم الإعتناء بها، أو الإقرار بقانونيتها؟

إن مضامين هذه الأسفار تكشف بنفسها عن السبب الكامن وراء إخفائها وإنكارها، وهو ما ينبغي تسليط الضوء عليه، ولو بصورة سريعة ومجملة، بحسب ما يتسع له المجال، من خلال ما تيسر منها بين أيدينا.

مسيح آخر الزمان

إن كلمة المسيح تعني (المخلِّص) بحسب مصطلح الكتاب المقدس، وقد أخذت في الثقافة اليهودية معنى الملك الزماني، الذي يحكم الأرض في آخر الزمان، ويقيم دولة العدل، ويخلصهم من أعدائهم[31].

ولما جاء السيد المسيح (عليه السلام)، ظنوا أنه هو الموعود في آخر الزمان، فحاول بعضهم أن يخطفوه ليجعلوه ملكًا عليهم[32]، بعدما رأوا ما اجترحه من معجزات، ولكن ثائرتهم ثارت عليه بعدما بيّن لهم أنه مجرد رسول مبشر بمسيح آخر الزمان، وعملوا على قتله، خوفًا من انقلاب الناس ضد المؤسسة الدينية اليهودية.

ولم يتقبل المسيحيون -تبعًا لمدرسة بولس- هذه البشارة والنبوءة، فعملوا على ليّ أعناق النصوص المقدسة، بما فيها كلمات السيد المسيح (عليه السلام) نفسه، فأخذوا يفسرونها تفسيرات رمزية، لا ترتبط بمداليل الألفاظ، فأمسكت المؤسسة الدينية بمفاصل ودلالات هذه النصوص، واحتكروا فهمها وتفسيرها، وحظروا على الناس التعامل معها بمعزل عن الكهنة، في مسعى حثيث وجاد، منذ ما بعد عيسى (عليه السلام) مباشرة، ولهذا أقصي الحواريون عن مسرح الأحداث بالمرة.

إن من المتسالم عليه بين يهود ذلك الزمان، أن الحكومة الزمنية ينبغي أن تكون بيد نسل داوُد (عليه السلام)، وهو ما دفع المسيحيين إلى افتعال نسب بين السيد المسيح (عليه السلام) وبين داوُد (عليه السلام)، دون أن يوفّقوا في ذلك، فقد أدّت هذه الدعوى إلى الكثير من التناقضات والارتباك في ترتيب المنظومة الدينية، وإثبات حقانيتها كدين متماسك وسليم، كما فشلت فشلاً ذريعًا في بيان أن السيد المسيح (عليه السلام) هو مسيح آخر الزمان، وقد صرّح كاتب الإنجيل الرابع أنه كتب سفره لاثبات أن يسوع هو المسيح[33].

وقد أثبتنا في كتاب [المسيح في الإنجيل] أن نسب السيد المسيح (عليه السلام) هو هاروني -بحسب الأناجيل الأربعة- وليس داوُديًا، وهذا ما يفقده خصوصية الحكم في آخر الزمان، بحسب القانون الكتابي المعمول به عندهم.

وقد أثبتت الاكتشافات الجديدة -أي مخطوطات قمران- هذه الحقيقة، إذ لم يرد أي ذكر لنسل داوُد وملكه، ولا المسيح الداوُدي في هذه المخطوطات[34]، بل هي صريحة في أن المسيح هاروني النسب في مخطوط دمشق[35].

المسيح الهاروني

إن ما تقدم يدفعنا إلى التساؤل أنه إذا كان مسيح آخر الزمان هارونيًا، فهو مخالف لما توافق عليه علماء أهل الكتاب من أن المسيح الحاكم، لا بد وأن يكون من نسل داود (عليه السلام)، فلا يمكن الوصول إلى حل لهذه المعضلة.

إلا أن هذا التساؤل يرتفع بمجرد الالتفات إلى خصوصيات الدعوة الأخيرة، لأن مقتضى العهد القديم أن نسل داود (عليه السلام) يتولى الحكم فترةً محدّدة من الزمن، حدّدها العهد القديم بمجيء [شيلون]، فيقول: [لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب][36]، وفي نسخة أخرى [وإياه تنتظر الأمم].

وهو ما لا ينطبق على السيد المسيح (عليه السلام)، لأن الأمم لم تكن تنتظر مخلّصًا في زمانه، بل الذين كانوا ينتظرون هم اليهود في الخصوص، نتيجة الذل والعبودية التي كانوا يرزحون تحتها، فافترضوا أنه سيخلصهم من الأمم، وهو ما لم يتحقق أيضًا، لأن السيد المسيح (عليه السلام) -وإن كان من نسل يهوذا كما يزعمون- لم يدعُ إلى حكم الأرض، ولا عمل على تغيير الواقع السياسي آنئذ..

فحاكمية نسل يهوذا إذن محددة وليست مطلقة، وهنا تبرز مفارقة أخرى، وهي أن السيد المسيح (عليه السلام) من نسل هارون (عليه السلام) بواسطة أمه السيدة العذراء، وليس من نسل يهوذا كما أثبتناه في كتاب [المسيح في الإنجيل]، كما أن الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ينتسب إلى هارون (عليه السلام) بواسطة أمه السيدة نرجس[37].

فإذا تبين أن السيد المسيح (عليه السلام) لم يكن هو المسيح الموعود، نظرًا لإصراره الشديد على أنه مجرد مبشّر بالملكوت وشاهد له، كما بيّنه في مختلف مراحل دعوته، وأنهاها بمقولته التي لا تقبل التأويل [مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود][38]، تبين أن المراد هو مسيح هاروني آخر يأتي في آخر الزمان، لا يعمل بشريعة التوراة، كما بيّنه السيد المسيح (عليه السلام) نفسه، حيث قال لليهود: [لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره][39].

وبهذا تتم نبوءة سفر التكوين بنهاية ملك يهوذا ومجيء شيلون، وتنتقل الحاكمية الأرضية بأمر الله تعالى، بواسطة المسيح الهاروني في آخر الزمان وهو الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه).

ومما يؤكد هذه الحقيقة، أنه ورد في دستور جماعة المخطوطات، أنهم قد بدأوا بالتمهيد لمجيء المخلص في مستقبل الأيام، مع أنهم معاصرون للسيد المسيح (عليه السلام) ومن أتباعه كما تقدم، وهذا يعني أنهم مخالفون في فهمهم لحقيقة المسيح الموعود في آخر الزمان لما يقول به المسيحيون، يقول أحد النصوص: [وإنهم عن مبدأ الشريعة لا يحيدون ليمضوا في عناد قلبهم كله. وستحكمهم الأنظمة الأساسية التي بدأ بها أعضاءالجماعة بالتعلم، حتى مجيء النبي ومسيح هارون وإسرائيل][40].

ومسيح هارون هو مسيح إسرائيل في نص آخر، وهو تابع للكاهن [أي مسيح آخر الزمان]، بحيث لا يحق لمسيح إسرائيل أن يمد يده لتناول الطعام بمحضر الكاهن، إلا بعد أن يبادر الكاهن لذلك، ويتبعه مسيح إسرائيل ثم باقي الجماعة[41].

كما أن المسيح المخلص مولود من أب وأم[42]، وهو ما لا يصدق على السيد المسيح (عليه السلام) كما هو ظاهر، وله غيبة عن أنظار أبناء الإنسان وعندما يظهر تظهر معه شريعة الحق[43].

وهذه المعاني نجدها مبثوثة في النصوص الإسلامية، من صلاة السيد المسيح (عليه السلام) خلفه، وأنه يأتي بدين جديد، مغاير في الكثير من حقائقه لما يتداوله الناس، وموافق لشريعة الحق التي صدع بها النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، ومفسرًا لها كما أرادها جده المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وغير ذلك من المضامين، قبل ظهور هذه المخطوطات بأربعة عشر قرنًا من الزمان.

وكثيرة هي النصوص التي تتحدث عن ملك المسيح الأرضي في آخر الزمان، الأمر الذي لا يدع مجالا للشك في أن المراد منه الإمام المهدي (عجل الله فرجه). ولا تنطبق بأي حال على السيد المسيح (عليه السلام)، ففي سفر أخنوخ: [فسألت الملاك الذي كان يرافقني: ما هذه الجبال التي رأيتها بشكل غامض؟ فأجابني: ما رأيته كله سيخدم سلطة مسيحه، لكي يقوم ويمارس السلطة على الأرض][44].

يتبع =

تتمة مقال = الدين الحق في نصوص أهل الكتاب

المصطفى ومعلم الحق

من الأمور الهامة في كتابات أهل الكتاب تعرضهم لأحداث آخر الزمان، وصفات النبي الذي سيحكم العالم طبقًا لشريعته، دون أن يكون لبني إسرائيل أية خصوصية فيه، بل المِلاك فيه هو الإنسان من حيث هو إنسان، [في يده توجد قوانين الكائنات كلها، وأنه هو الذي يسندها في كل حاجاتها. وأنه هو الذي خلق الإنسان لتكون له السيادة على الأرض][45].

[وكل ما كان قد أخفي عن إسرائيل إنما وجده الإنسان الذي بحث][46].

إن من أهم صفات هذا النبي أنه يعلم جميع الأشياء، التي حصلت مع سائر الأنبياء قبله، والأحكام والتشريعات التي جاؤوا بها، وما سيحصل في مستقبل الأيام، ففي تفسير حبقوق: [الذين سيغدرون في نهاية الأيام إنهم الأعداء الذين لا يؤمنون، عندما يسمعون بالأشياء كلها، التي تحصل للذرية الأخيرة، من فم الكاهن الذي أقامه الله، لكي يفسر كافة عبارات عبيده الأنبياء الذين بواسطتهم روى الله كافة الأشياء التي ستحصل لشعبه وللأمم][47].

ومعلم الحق هذا قد جعله الله يعرف كافة أسرار كلام خدامه الأنبياء[48].

وعقاب الكاهن الذي ينكر تعاليم معلم الحق وأتباعه سيسلمه الله لأيدي أعدائه لكي يذل بضربة قاضية في مرارة النفس، لأنه كان قد تصرف بشكل زنديق تجاه مختاريه[49].

وفي نهاية الأزمنة ستزول مملكة إسرائيل فيذهب نساؤها وأولادها وأطفالها الصغار أسرى، وأبطالها ووجهاؤها سيسقطون بالسيف[50].

وأما الأبرار فهم الذين سيرثون الأرض: [إنهم هم الذين سيرثون الارض، وعليكم أيها الكافرون اللعنة، عندها سيعطي للمختارين النور والنعمة، وسيكونون هم الذين يرثون الأرض][51].

ومن الصفات التي أطلقت على معلم الحق أنه المصطفى، وهو لقب اختص به نبي الإسلام الأعظم (صلى الله عليه وآله)، دون غيره من الأنبياء، ففي سفر أخنوخ: [وفي هذا الموضع رأت عيناي مصطفى الحق والإخلاص، العدالة ستسود في زمنه،...، بحضوره لن تهلك العدالة أبدًا، ولن يفنى الحق بوجوده][52].

[أمامه سينحني ويسجد جميع سكان الأرض، سيمجدون ويمدحون ويباركون رب الأرواح، ولهذا أصبح المصطفى والذي كان قد أخفي بحضوره منذ ما قبل خلق العالم وحتى نهاية الدهر][53].

وقد تحدث كثيرًا في وصف عدالته، وقدرته، وحكمته، وقضائه بين الناس بالعدل، وسيطرته على كافة الشرائع، وأنه سيبين كل ما أخفي بفمه.

وشيء من ذلك لم يتحقق على يد السيد المسيح (عليه السلام)، فإنه بالإضافة إلى إعلانه أن مملكته ليست من هذا العالم، فقد امتنع عن القضاء بين الأخوين في قسمة الميراث بينهما، قائلا: [من أقامني عليكما قاضيًا أو مقسمًا؟][54].

كما امتنع عن إقامة الحد، الذي تفرضه الشريعة، على المرأة الزانية[55].

بل نجد أنه لم يتعرض إلى تغيير الوضع السياسي القائم بأي شكل من الأشكال، ولم يعمل لذلك أبدًا، كما تقدمت الإشارة إليه، ومن المفروض أن المخلص سوف يأتي ليرفع كافة أنواع المظالم عن الناس عمومًا، فضلاً عن بني إسرائيل بحسب ما يفترضون له من مهام.

وأكثر من ذلك، فقد دفع الجزية لقيصر، وأعلن مقولته الشهيرة [أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله][56]، وقد سبق له أن دفع الجزية مرة أخرى في بداية دعوته الشريفة، كما يبدو، حيث أمر بطرس أن يذهب ويلقي صنارة وأول سمكة تخرج يجد فيها جزية عنه وعن بطرس ليدفعها[57].

وأعلن لتلاميذه بشكل صريح أنه لم يبين لهم كل شيء، لعدم قدرتهم على تحمله، وأن الذي يقوم بذلك شخص آخر: [إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية][58].

ولهذا بيّن (عليه السلام) لهم بأن ذهابه خير لهم: [لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي][59].

وقال لهم في مقام آخر: [بهذا كلّمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم][60].

مكان الدعوة الخاتمة

لقد ورد في الكثير من الأخبار الإسلامية أن أهل الكتاب -وخصوصًا اليهود منهم- كانوا يعرفون موطن بعثة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) حق المعرفة، والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، التي أشار إليها في قوله تعالى: **{يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}**، وهو يعني معرفتهم بكافة التفاصيل المرتبطة بشخصه الكريم، بما فيها منطقه ومنطلقه ومهاجره، كما هو الشأن في معرفة الأبناء والاطلاع على أحوالهم.

فقد ورد أن رجلاً يهوديًا من بني عبد الأشهل خرج إلى جيرانه قبل بعثة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) بيسير، وأخبرهم بأنه يوشك أن يبعث نبي من ناحية مكة المكرمة[61].

وورد أيضًا أن اليهود كانوا يجدون في كتبهم أن مهاجر النبي (صلى الله عليه وآله) بين عير وأُحد، فأتوا واستوطنوا في ضواحي المدينة المنورة[62].

وقد يبدو هذا الكلام غريبًا بالنسبة لأهل الكتاب بعد ملاحظة أولية لأسفارهم، إذ قد يظهر للوهلة الأولى أنها خالية من مثل هذه الدلالات، نتيجة تلاعب النساخ والمترجمين بها، أو ربما يتصورون عدم دقة القرآن الكريم في نقله عنها.

إلا أن الملاحظة الدقيقة ومراجعة النسخ المختلفة للكتاب المقدس، تدل على صحة ما ورد في القرآن الكريم والأخبار الواردة في تاريخ المسلمين، ولا يبقى معها أي شك في صدق نبوءة القرآن الكريم، فقد أثبتنا في كتاب [وعد التوراة لمن] أن أورشليم المقدسة في العهدين هي مكة المكرمة وليست بيت المقدس، بحسب نصوص الكتاب المقدس نفسه.

ونضيف هنا:

ألف: أنه قد ورد في المزمور الرابع والثمانين قوله: [طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يسبحونك، طوبى لأناس عزهم بك. طرق بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعًا. أيضًا ببركات يغطون مورة][63].

وفي نسخة التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، يقول: [طوبى لأناس أنت قوتهم، المتلهفون لاتباع طرقك المفضية إلى بيتك المقدّس، إذ يعبرون في وادي البكاء الجاف يجعلونه ينابيع ماء، ويغمرهم المطر الخريفي بالبركات][64].

والمهم في هذا النص هو عبارة وادي البكاء ومورة، فقد بان الارتباك والحيرة لدى مترجمي ومفسري الكتاب المقدس، في التعامل معها وفهم معناها، وهو ما يظهر من خلال الترجمات المتعددة للكتاب المقدس.

ولهذا نجد أن بعض المفسرين بعد عجزهم عن تحديد موقع وادي البكاء، يفترضون أنه موقع خيالي، فقد ورد في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ما لفظه: [الأرجح أن وادي البكاء ليس مكانًا في الواقع، بل هو رمز لواد يابس يتحول بطريقة معجزية، بالأمطار إلى أرض خصبة][65].

إلا أننا بالرجوع إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس المطبوعة في بروكلن، نيويورك عام 1984، نجد أن الكلمة هي Baca وهو نفس الإسم الوارد في قاموس الكتاب المقدس ص187، وفسرها بقوله [قد تعني البلسان] أي شجر الميس.

وهذا التفسير لا ينسجم مع ما تقدم عن التفسير التطبيقي من أنه واد يابس، والصحيح أنه اسم مكة المكرمة، فإن من أسمائها [بكة]، كما ورد في قوله تعالى: **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ}**[66].

وهذا التفسير يتوافق تمام التوافق مع قوله تعالى، حكاية عن ابراهيم (عليه السلام): **{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}**[67].

باء - وفي كتاب الخمسينيات نجد عبارة: [مظلتي ومعبدي الذي أقمته وسط الأرض حتى أضع فيه اسمي فيسكن فيه أو سيتخذون لأنفسهم مواقع عليا، وغياضًا مقدسة، وتماثيل منحوتة سيعبدونها، لكل تمثاله لضلالهم، وسيضمون بأطفالهم للشياطين ولكافة أعمال قلوبهم الضالة][68].

ومن الظاهر أن هذا النص لا ينطبق على بيت المقدس ولا على هيكلها المزعوم، إذ لم يتحدث التاريخ عن وجود أوثان فيه، ولا عن قوم عبدوها فيه، حتى في أزمنة سيطرة غير اليهود على بيت المقدس، فإنهم كانوا غالبًا يتركون لهم حرية التعبد فيه، كما يقول المؤرخون، وإن كان الجانب الأهم فيه هو أنه مركز المملكة سواء في عهد سليمان (عليه السلام) أو من أتى بعده من ملوك إسرائيل، كما لم يطلق عليه اسم المعبد في أي عصر من عصوره.

إن النص المذكور ينطبق تمام الإنطباق على الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، فإنها رغم كونها أول بيت وضع للناس، كما صرحت به الآية القرآنية المباركة، فقد امتلأ في عصر الجاهلية بالأصنام التي كان الناس يعبدونها ويقدسونها، سواء في داخل الكعبة أو على سطحها أو حولها.

بالإضافة إلى ما تقدم، فإن النص قد تضمن إشارة مهمة إلى موقع المعبد المقدس، الذي نسبه الله تعالى إليه، وهو أنه واقع في وسط الأرض، وهي إشارة يجدر التأمل فيها والوقوف عندها، فبيت المقدس لا يقع في وسط الأرض، سواء احتسبنا الأرض خصوص العالم القديم، والذي يشكل الشرق الأدنى عمقه الجغرافي والسياسي، لقربها من

البحر الأبيض المتوسط، والذي كان يعتبر نهاية العالم ببعض الاعتبارات، أو بالنسبة إلى اليابسة في الكرة الأرضية.

وأما مكة المكرمة فقد أثبت الدكتور حسين كمال الدين في بحث متكامل أنها تقع في وسط اليابسة من الكرة الأرضية، وذكر لذلك مجموعة من الأدلة المثبتة [69].

وعليه فالعبارة الواردة في كتاب الخمسينيات تتحدث عن مكة المكرمة بلا شبهة.

وبهذا تظهر بعض الأسباب التي دعت أهل الكتاب إلى التلاعب بنصوصهم المقدسة، وتغيير مضامينها، وإخفاء بعضها وإحراق وتمزيق بعض آخر منها.

ويظهر أيضًا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وإخباراته الغيبية، وكشفه حقائق لم تظهر إلا بعد قرون متطاولة من بعثة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وصدعه بالرسالة الخاتمة.

(انتهى المقال)

الهوامش

1 _____ () سورة البقرة، آية:146

2 سورة الأعراف، آية:157

3 القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم.

4 عدد 14-15.

5 الكتاب المقدس بين العلم والإيمان، الأب بيتر مدروس، المكتبة البولسية 2004، ص20.

6 سورة الأنعام، آية: 91.

7 مجمع البيان،الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المجلد الثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1379هـ ص333.

8 راجع: قاموس الكتاب المقدس، ص32.

9 الترجمة السبعينية هي أقدم ترجمة لأسفار العهد القديم من أصلها العبري إلى اللغة اليونانية، وهي التي تمت في سنتي282، 283 ق. م على يد اثنين وسبعين حبرًا من يهود مصر بأمر بطليموس فيلادلف، ومراعاة لعدد من قام بها سميت الترجمة السبعينية. (Versionde septane). راجع أهل البيت (ع) في الكتاب المقدس، كاظم النصيري، ص 30. (التحرير).

10 الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات، عبد المجيد همو، دار الأوائل، دمشق، 2003، ص67.

11 كتابات قمران، الخوري بولس الفغالي، ج1، ص13.

12 مخطوطات قمران، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 1998، ج1، ص7.

13 نفس المصدر السابق، ص44.

14 نفس المصدر السابق، ص64.

15 _____ () نفس المصدر السابق، ص37.

16 قاموس الكتاب المقدس، ص1065.

17 مخطوطات قمران، ج1، ص64.

18 انجيل متى: 9/35.

19 المصدر نفسه: 8-10/5.

20 مخطوطات قمران، ج1، ص40

21 انجيل يوحنا: 12-13/10

22 مخطوطات قمران، ج1، ص30

23 الأناجيل المنحولة، ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة جوزيف قزي والياس خليفة، دير سيدة النصر، نسبيه- غسطا، 2004، ص10.

24 إنجيل متى: 21-14/16.

25 المصدر نفسه:21/19.

26 المصدر نفسه:19/26.

27 إنجيل مرقس:9/23.

28 إنجيل متى:17/20.

29 الأناجيل المنحولة، مرجع مذكور، ص10.

30 قاموس الكتاب المقدس، ص771.

31 قاموس الكتاب المقدس، ص860.

32 إنجيل يوحنا: 6/15.

33 المصدر نفسه: 20/31.

34 مخطوطات قمران، ج1، ص50.

35 المصدر نفسه: ج1، ص207.

36 سفر التكوين: 49/10.

37 منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمي، الدار الإسلامية، بيروت، 1994، ج2، ص556.

38 انجيل يوحنا: 18/36.

39 انجيل متى: 21/43.

40 مخطوطات قمران، ج1، ص90-91.

41 نفسه ص112.

42 نفسه ص334.

43 نفسه ص342-343.

44 مخطوطات قمران، ج2، ص56.

45 مخطوطات قمران، ج1 ص76.

46 نفسه ص88.

47 نفسه، ص284، وتجدر الإشارة هنا إلى أننا حذفنا بعض العبارات التي أضافها المحقق في بعض الموارد، إلا ما كان ضروريًا للسياق والمعنى.

48 نفسه، ص286.

49 نفسه، ص 287.

50 نفسه، ص304.

51 مخطوطات قمران، ج2 ص30

52 نفسه، ج2، ص53

53 نفسه، ج2، ص47

54 إنجيل لوقا:12/14.

55 إنجيل يوحنا:8/7.

56 إنجيل متى:21-22/17.

57 نفسه:17/27.

58 إنجيل يوحنا: 13-16/12.

59 انجيل يوحنا: 7-16/6.

60 إنجيل يوحنا:26-14/25.

61 الدر المنثور في التفسير المأثور، ج1 ص170.

62 تفسير العياشي، ج1 ص49.

63 عدد: 4-6.

64 نفسه.

65 ص1221، تعليق رقم: 6 / 84.

66 سورة آل عمران، آية:96.

67 سورة إبراهيم، آية:37.

68 مخطوطات قمران، ج2 ص172.

69 الأرض في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص59.

المسيح يبشّر بالمهدي

السيد باسم الصافي

السيد باسم الصافي

البشارة

لقد بُعث المسيح (عليه السلام) بالبشارة، وكلمة "إنجيل" مأخوذة من اللفظ اليوناني "اونجليون" ومعناه: "خبر طيب" و"بشرى الخلاص" وإعلان هذه البشرى[1].

وقد ورد في إنجيل مرقس: وبعد اعتقال يوحنا (وهو النبي يحيى (عليه السلام)) جاء يسوع إلى الجليل يعلن بشارة الله فيقول:"حان الوقت واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالبشارة"[2].

وفي إنجيل مرقس أيضا أنه قال لتلاميذه: "... يجب أن تعلن البشارة قبل ذلك إلى جميع الأمم"[3].

"اذهبوا في العالم كله وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين"[4].

وفي إنجيل لوقا أنه قال لأحدهم: "... وأما أنت فامضِ وبشّر بملكوت الله"[5].

فالبشارة هي الرسالة التي جد واجتهد عيسى (عليه السلام) لإعلانها للناس أجمعين وكان فرحًا بها، وهي اقتراب ملكوت الله عز وجل، وحَصَرَ علة بعثه وأساس رسالته بالتبشير بذلك حيث ورد أنه قال: "يجب عليّ أن أبشّر سائر المدن أيضًا بملكوت الله فإني لهذا أرسلت"[6].

فما هو هذا الملكوت؟

ملكوت الله

ورد هذا الاصطلاح كثيرًا في الكتاب المقدس، وبالتحديد (14) مرة في إنجيل مرقس، و(39) مرة في إنجيل متى، وورد في بعضها بصيغة "ملكوت السماوات" وذلك جريًا على عادة اليهود حينها في عدم ذكر اسم الجلالة "الله" احترامًا ورهبة.

ولمعرفة المراد من هذا المصطلح يجب أن ننظر إلى ما يستخرج من نفس نصوص الإنجيل فيكون تفسيرًا للإنجيل بالإنجيل وليس بالاعتماد على الآراء النظرية.

وبعد ملاحظة النصوص يظهر وبكل وضوح أن "الملكوت" هو "الحكم" و"ملكوت الله" هو "حكم الله".

ومن هذه النصوص

قال المسيح (عليه السلام) لتلاميذه:" متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض"[7].

وفي عبارة متى: "ليأتِ ملكوتك ليكن ما تشاء في الأرض كما في السماء"[8].

أي أن يُطبّق حكم الله عز وجل في الأرض من قبل البشرية كما يطبق في السماء من قبل الملائكة، وهذا هو هدف الأنبياء والرسل (عليهم السلام) في هداية البشر إلى أحكام الله عز وجل الفردية والاجتماعية التي تكفل سعادة الإنسان والإنسانية جمعاء، فالذي يعرف صلاح الإنسان فردًا ومجتمعًا هو الله عز وجل الخالق الحكيم.

ونبوّة عيسى ورسالته كانت من البشائر بقرب حدوث ذلك، لأن عيسى (عليه السلام) وقومه سيشتركون في هذا الملكوت الرباني الشامل للأرض والسماء.

ومنها: ما ورد من أن النبي يحيى (عليه السلام) المعاصر للنبي عيسى (عليه السلام) بشّر به أيضًا: "في تلك الأيام ظهر يوحنا المعمدان ينادي في البرية اليهودية فيقول: "توبوا قد اقترب ملكوت السماوات"[9].

ومنها: "وبعد اعتقال يوحنا جاء المسيح إلى الجليل يعلن بشارة الله فيقول: "حان الوقت واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالبشارة"[10].

وقت حدوث الملكوت

سئل المسيح عن موعد حدوث ملكوت الله فأجاب: "لا يأتي ملكوت الله على وجه يراقب"[11].

أي أنه سيكون فجأة، إلا أنه في آخر الزمان.

ويدل على هذا المعنى ما ورد من قول المسيح (عليه السلام): "والذي يثبت إلى النهاية فذاك الذي يخلص، وستعلن بشارة الملكوت هذه في المعمور كله شهادة لدى الوثنيين أجمعين وحينئذ تأتي النهاية"[12].

تقول الرهبانية اليسوعية: أي "نهاية" التدبير الإلهي الحاضر وإقامة ملكوت الله على وجه نهائي[13].

مساحة الملكوت

إن حكم الله في الأرض وملكوته يشمل جميع الأمم كما جاء في البشارة به: "ويجب أن تعلن البشارة قبل ذلك إلى جميع الأمم"[14].

"سوف يأتي الناس من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب فيجلسون على المائدة في ملكوت الله"[15].

الذين يدخلون في الملكوت

حدّد المسيح (عليه السلام) مواصفات الناس الذين يدخلون حكم الله عز وجل وملكوته ودولته على الأرض وطبقاتهم وصفاتهم، ومما قال: "دعوا الأطفال يأتون إليّ، لا تمنعوهم، فلأمثال هؤلاء ملكوت الله، الحق أقول لكم: من لم يقبل ملكوت الله مثل الطفل لا يدخله"[16].

أي: من لم يكن مثل الأطفال في براءة النفوس وطهارتها لا يدخل ملكوت الله، ويدل عليه قوله: "الحق أقول لكم إن لم ترجعوا فتصيروا مثل الأطفال لا تدخلوا ملكوت السماوات"[17].

وذكر الأغنياء المترفين المحبين للدنيا فقال: "ما أعسر دخول ملكوت الله على ذوي المال، فلئن يدخل الجمل في ثقب الإبرة أيسر من أن يدخل الغني ملكوت الله"[18].

وذكر العمل الصالح قائلاً: "فإني أقول لكم: إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفريسيين (أي رجال الدين اليهود) لا تدخلون ملكوت السماوات[19].

وخاطب الطبقات المظلومة والضعيفة مبشرًا إياهم بما سيكون حالهم في ملكوت الله وحكمه العادل في الأرض: "طوبى لكم أيها الفقراء فإن لكم ملكوت الله، طوبى لكم أيها الجائعون الآن فسوف تشبعون، طوبى لكم أيها الباكون الآن فسوف تضحكون"[20].

أما أهل الباطل فسيحرمون من دخول ملكوت الله ويعاقبون ويتحول نعيمهم الباطل إلى شقاء وضحكهم إلى بكاء قال: "لكن الويل لكم أيها الأغنياء فقد نلتم عزاءكم، الويل لكم أيها الشباع الآن فسوف تجوعون، الويل لكم أيها الضاحكون الآن فسوف تحزنون وتبكون"[21].

وقال عن التبدّل الاجتماعي بين أهل الحق والباطل: "طوبى لفقراء الروح فإن لهم ملكوت السماوات، طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض، طوبى للمحزونين فإنهم يعزّون، طوبى للجياع والعطاشى للبرّ فإنهم يشبعون، طوبى للرحماء فإنهم يرحمون، طوبى لأطهار القلوب فإنهم يشاهدون الله[22] طوبى للسّاعين إلى السلام فإنهم أبناء الله يدعون[23] طوبى للمضطهدين على البرّ فإن لهم ملكوت الله"[24].

ولخّص عيسى (عليه السلام) بداية الملكوت وكيفية حدوثه بقوله: "ومثل ملكوت السماوات كمثل شبكة ألقيت في البحر فجمعت من كل جنس فلما امتلأت أخرجها الصيادون إلى الشاطئ وجلسوا فجمعوا الطيّب في سلال وطرحوا الخبيث، وكذلك يكون عند نهاية العالم، يأتي الملائكة فيفصلون الأشرار عن الأخيار ويقذفون بهم في أتون النار فهناك البكاء وصريف الأسنان"[25].

ويدخل في ملكوت الله وحكمه في الأرض التائبون: "الحق أقول لكم (أي لكهنة اليهود): إن العشّارين والبغايا يتقدمونكم إلى ملكوت الله فقد جاءكم يوحنا (أي النبي يحيى) سالكًا طريق البرّ فلم تؤمنوا به وأما العشّارون والبغايا فآمنوا به، وأنتم رأيتم ذلك فلم تندموا آخر الأمر فتؤمنوا"[26].

الحالة الاجتماعية في الملكوت

التفاضل في مجتمع حكم الله في الأرض هو على أساس التقوى وتنفيذ الوصايا الربانية، جاء في إنجيل متى عن النبي عيسى (عليه السلام) قوله: "فمن خالف وصية من أصغر تلك الوصايا وعلّم الناس أن يفعلوا مثله عدّ الصغير في ملكوت السماوات، وأما الذي يعمل بها ويعلّمها فذاك يعدّ كبيرًا في ملكوت السماوات"[27].

وسألوه: من تراه الأكبر في ملكوت السماوات؟

فدعا طفلاً فأقامه بينهم وقال: "الحق أقول لكم: إن لم ترجعوا فتصيروا مثل الأطفال لا تدخلون ملكوت السماوات، فمن وضع نفسه وصار مثل هذا الطفل فذلك هو الأكبر في ملكوت السماوات"[28].

وعلى هذا التقسيم بين الناس على أساس التقوى وطهارة القلب والانصياع والاستعداد للتعلم والتهذّب ستتغير مراتب الناس قبل حدوث حكم الله في الأرض، فعن النبي عيسى (عليه السلام) أنه قال: "وسوف يأتي الناس من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب فيجلسون على المائدة في ملكوت الله فهناك آخرون يصيرون أولين وأولون يصيرون آخرين"[29].

أما السابقون في الإيمان فيقول عنهم: "والصدّيقون يشعّون حينئذ كالشمس في ملكوت أبيهم"[30].

وهذا النص دليل على أن الدعوة الإلهية للمؤمنين هي أبوة تكريميّة وانتسابية لا ولادية ونسبيّة.

دولة المهدي والمسيح (عليهما السلام)

إن ملكوت الله ودولة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) هما أمر واحد يأتي في آخر الزمان ويشمل الأرض كلها وستطبّق فيه مشيئة الله وأحكامه في الأرض كما في السماء، ويكون فيه العدل، وينعم فيه الأبرار والمضطهدون والفقراء، ويعاقب فيه الفجّار والمجرمون، ويقتلعون من المجتمع كما يقتلع الشوك من الحقل، وستمتد هذه الدولة من شرق الأرض إلى غربها ومن الشمال إلى الجنوب، وتكون خاتمة لمسيرة البشرية وثمرة جهود الأنبياء (عليهم السلام).

ورد عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله): "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم"[31].

وقال (صلى الله عليه وآله) أيضًا: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا وعدلاً"[32].

أي أنه سيحكم فيما يختلف فيه بين المسلمين والمسيحيين.

ورد عن النبي عيسى (عليه السلام) حول دولة الإمام المهدي (عجل الله فرجه): "أنا لا أطلب مجدي فهناك من يطلبه ويحكم"[33].

وورد أيضًا: "إن ملكوت الله سينزع منكم ويعطى لأمّة تثمر ثمره"[34].

فالحكم للإمام المهدي (عجل الله فرجه) والإعانة من المسيح (عليه السلام).

ابن الإنسان في الإنجيل

وذكر المسيح الإمام المهدي بمصطلح (ابن الإنسان)، إلا أن المسيحيين الأوائل اعتقدوا أن هذا المصطلح يعود للمسيح نفسه كما تقول الرهبانية اليسوعية: "وجدت فيها الجماعة المسيحية الأولى أحدث العبارات المميزة ليسوع الناصري ففضلتها على سائر الألقاب التي أطلقتها عليه"[35].

والمتتبّع لموارد هذا المصطلح في الإنجيل يجد بأنه يستحيل انطباقه في بعض الموارد على النبي عيسى (عليه السلام)، ويتضح له أن المراد به شخص آخر هو الذي يطلب المجد ويحكم.

ومن أدلة ذلك قوله (عليه السلام) لتلاميذه قبل ارتفاعه للسماء: "الحق أقول لكم: من الحاضرين ههنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته"[36].

ولم يدّع أحد أن من تلاميذه من بقي حيًّا ولم يذق الموت حتى قيام ملكوت الله الذي لم يأت بعد، بل هو عيسى في السماء ينتظر ذلك اليوم الذي يشاهد فيه ابن الإنسان آتيًا في ملكوته ولذا احتارت الرهبانية اليسوعية في هذا النص فقالت: "يفترض هذا الكلام أن بعض معاصري يسوع لن يموتوا قبل ظهور ابن الإنسان في مجده"[37].

علائم الظهور في الإنجيل

بعد أن اتضح لنا أن بشارة المسيح (عليه السلام) هي البشارة بقيام دولة الحق في آخر الزمان على يد ابن الإنسان -والذي نجده في نصوصنا أنه ينطبق على الإمام المهدي (عجل الله فرجه) الذي يظهر في آخر الزمان ويملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعدما ملئت ظلمًا وجورًا- نذكر بعض ما ورد في الأناجيل الأربعة من كلام المسيح حول علائم الظهور مما يشابه ما ورد في مصادرنا الإسلامية.

سأله تلاميذه: "قل لنا متى تكون هذه الأمور وما علامة مجيئك ونهاية العالم"[38].

تقول الرهبانية اليسوعية تعليقًا على كلمة "مجيئك": "تدل الكلمة اليونانية على مجيء ابن الإنسان"[39].

وقال في جوابهم: "... وستسمعون بالحروب وبإشاعاتٍ عن الحروب فإياكم أن تفزعوا فلا بد من حدوثها"[40].

وقال أيضًا: "ولكن لا تكون النهاية عندئذ فستقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وزلازل في أماكن كثيرة، وهذا كله بدء المخاض، ويزداد الإثم فتفتر المحبة في أكثر الناس، والذي يثبت إلى النهاية فذاك الذي يخلص"[41].

ويتحدث عن الظهور السريع والمفاجئ لابن الإنسان المخلّص -الإمام المهدي (عجل الله فرجه) - قائلاً: "وكما أن البرق يخرج من المشرق ويلمع حتى المغرب، فكذلك يكون مجيء ابن الإنسان"[42].

جاء عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله): "المهدي من ولدي... تكون له غيبة وحيرة تضل فيها الأمم ثم يُقبل كالشهاب الثاقب"[43].

الخلاصة

إن دولة وحكومة الإمام المهدي (عليه السلام) العالمية هي آخر مرحلة في التاريخ البشري، وسيتم فيها تحقيق الأهداف الإلهية السامية في عبودية الإنسان لله عز وجل على المستوى الفردي والاجتماعي، وهذا الأمر جعل الله له بشارة من قبل المسيح لأنصاره الذين أنقذهم من الانحراف الديني لليهود، ومن ثمّ رفعه الله عز وجل إلى السماء، وادّخره لنصرة وإعانة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) في هداية المسيحيين في أرجاء الأرض، لطفًا من الله عز وجل بالأبرياء من الناس الذين لم يدركوا الحق دون تعمّد.

ولمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع وعلى تفاصيل ما ورد على لسان المسيح في الأناجيل الأربعة المقررة عند المسيحيين راجع كتابنا "المهدي والمسيح قراءة في الإنجيل"، وأيضًا كتابنا "المخلّص بين الإسلام والمسيحية" بحث في تعاون المهدي والمسيح، ففيهما الكثير مما لم يتيسر لنا ذكره في هذه المقالة[44].

الهوامش

1 العهد الجديد، 25، طبع دار المشرق 1991م، بيروت.

2 مرقس، 1/14-15؛ وراجع: متى، 4/12-17.

3 مرقس، 13/9؛ وراجع: متى، 10/17-22.

4 مرقس، 16/15.

5 لوقا، 9/59.

6 لوقا، 4/42.

7 لوقا، 11/2.

8 متى، 6/10.

9 متى، 3/1-2.

10 مرقس، 1/14-15.

11 لوقا، 17/2.

12 متى، 14-24/13.

13 لوقا 18/25

14 مرقس، 13/10.

15 لوقا، 13-29.

16 مرقس، 10/13؛ ولوقا، 18/15.

17 متى، 18/3.

18 الكتاب المقدس، مجمع الكنائس الشرقي: ص255.

19 متى، 5/20.

20 لوقا، 6/20.

21 لوقا، 6/24.

22 أي رؤية القلب لا رؤية العين فالله أسمى من أن تدركه الأبصار.

23 أي بنوة تكريمية وليست ولادية كما هو ابن الله تكريمًا وليس نسبًا، وسيأتي نص آخر يدل على هذا المعنى.

24 متى، 4/3.

25 متى، 50-13/47.

26 متى،30-1/28.

27 متى، 5/19.

28 متى، 4-18/1.

29 لوقا، 30-13/29.

30 متى، 13/43.

31 البخاري، 4/205.

32 البخاري 4/205.

33 يوحنا، 8/50.

34 متى، 44.

35 العهد الجديد ص58 هامش 15.

36 متى، 16/13.

37 العهد الجديد ص84.

38 متى 3-24/1.

39 متى 3/102.

40 متى 24/6.

41 متى، 24/4؛ 25/46.

42 متى 24/27

43 بحار الأنوار، 51/72.

44 وراجع حول هذا الموضوع: رسالة النجف، العدد الثاني، بشارة الملكوت، والعدد الخامس، ابن الإنسان في الإنجيل، وكلاهما للشيخ حاتم إسماعيل (التحرير).

الكنيسة في مواجهة العقل والعلم

الأستاذ حسن جابر

الأستاذ حسن جابر

توطئة

ثمة مسارات اضطرارية، وممرات إلزامية، يستحيل تجاوزها في معرض تناول واقع الكنيسة ورجالاتها إبّان حقبة القرون الوسطى.. وفي رحلة البحث تثير انتباهك وتَشْدَه حلُمك إلى حد الاستهجان وإعلان النكران، وذاك ليس من باب اعتبار دين من الأديان بذاته سببًا لنشوء تنازع بين الأمم، أو صراعٍ بين الحضارات، بقدر ما لأنصار هذا الدين وأتباعه من رغبة جامحة في السيطرة والاستئثار، وطموح نحو مزيد من الاستبداد وممارسة الظلم عن سابق إرادة وتصميم.

وقد أقدم الجامحون يومها على تخدير الناس بعبارات الصبر ومكابدة عناء الحياة بأناة بالغة، وقد قرن ذلك بادّعاء تمثيل الإله على الأرض من قبل الباباوات والقساوسة، وألزموا الناس الطاعة عنوة، بدعوى أن ذلك يرضي الربّ في ملكوته وقيامته.

فيومها كانت صورة أوروبا المسيحية، صورة المتوحش المستأثر الذي يخشى فناء ملك، وضياع إرث لطالما تغنّى به.

فكان واقع الكنيسة تاريخيًا مشوشًا ومضطربًا.

ادّعاء الاتصال بالملكوت... والميل نحو التصوّف... وابتداع السلوك الرهباني المصطنع، وبالمقابل نزوعٌ نحو مباهج الدنيا وزخرفها والتعلق بالمادية، والجنوح نحو الثروات وتكديسها من أجل سطوة دائمة، واستمرار التحكّم برقاب العباد والبلاد، وسيادة الشخصانية الوثنية بكل تجليّاتها العاتية، وتعابيرها المختلفة، التي سرعان ما اكتشفها السواد الأعظم من الناس... سوء سلوك، وزيف انتماء، فتقاربت رؤى المعترضين واندلعت ثوراتهم الدامية، ممن حدا بهم صوتُ العقل ونداء الضمير للاعتراض على ألوهية رجال الأكليروس وملوك الكنائس لتصحيح الواقع المزري، واستمرت طويلاً حتى أقصت الكنيسة بعيدًا.. ولم تنفع معها -فيما بعد- كل محاولات الوعظ والنصح التي لم تعد تنطلي على عقلية المسيحي الغربي، فصورة الكنيسة المتوحشة ما زالت ماثلة أمام أعين الكثيرين من خلال الألاعيب الجديدة في سلوك الباباوات والقساوسة.

هذا وقد فشلت كل محاولات إيقاف النزف المسيحي الداخلي لتوحيد التطلعات والأهداف، وبقيت ملامح التضاد الديني قائمة بين آيديولوجيات متعددة ومتنازعة، ولم تفلح إرهاصات المزاوجة بين النظرتين، والبحث عن قواسم مشتركة، وابتداع دينٍ هجينٍ من أجل فضّ الخصام وحصر الصراع، لخلق مقاربات تحول دون الصدام.

وللتعويض راحت الكنيسة -وبسلوك مزمنٍ وطويل- تحرّض على الآخر، الذي يتربص بالمسيحية شرًا ويسعى لاستئصالها -على حد زعمها- فبالغت برواية أحداث ما يتعرض له الحجاج الآتين إلى بيت المقدس، والخطر الإسلامي الذي أصبح على أبواب أوروبا (بعد انتصارات السلاجقة في معركة مانزكرت والسيطرة على أرمينيا، فأصبحوا على أبواب القسطنطينية)، فألهبت مشاعر العامة والخاصة باتجاه الحرب مع الآخر، ولتحقق من ذلك هدفين:

- إعادة سطوة رجال الدين المسيحي على قيادة الناس واستعادة ما فقدوه من هيبة ودور جامح.

- تحقيق حلم قديم جديد باستعمار البلاد الإسلامية ونهب ثرواتها، وقد جند الباباوات لأجل ذلك المبشرين والدعاة لدفع الناس باتجاه الحرب، فهذا "رويمر" يخطب ذات يوم في مؤتمر للمبشرين المسيحيين بجبل الزيتون في فلسطين موضحًا الهدف من الحرب على المسلمين:

[... إننا لا نبغي إخراج المسلمين من الإسلام، ثم إدخالهم في الديانة المسيحية، ولكننا نكتفي بإخراجهم من الإسلام وإبقائهم بلا دين، وبذلك تكونون أنتم الطليعة الأولى للركب الاستعماري، باركتم عناية الرب].

وبناء على ما تقدّم، ومن باب عدم الاستغراق في البحث وتفاصيل الحدث، أردنا في هذه العجالة المتواضعة مقاربةَ واقع الكنيسة في القرون الوسطى، ومفاعيل إجراءاتها على إنسان تلك المرحلة، مع ما رافق ذلك من احتدام للصراع مع العلماء، وصولاً للمواجهة القاسية التي أفضت إلى انعدام مرجعية الكنيسة -الدينية والسياسية-، حيث رافقها مزيد من حالة الاغتراب وضياع الإنسان القيمة، جرّاء منطلقات وغايات آنية لم تستخلص العِبَر والنتائج.

وسنحاول في بحثنا المتواضع هذا الإضاءة على مجموعة عناوين لازمت مسيرة الكنيسة والأكليروس والتي منها:

1- الكنيسة والعلم

أ- أوروبا المسيحية تقحم نفسها في نفق ولادة ثورة العلم

ولعل الجناية الكبيرة التي ارتكبت من دعاة الكنيسة، انبهارهم بالعلم وثورته الجديدة، وإعجابهم بنظرياته المختلفة، فراحوا يدسّون تلك المسلمات العصرية في كتبهم الدينية، إذ كانت يومها حقائق لا يشك فيها، لكنها حينها كانت أقصى ما وصل إليه العلم، وبالتالية غير مأمونة التحوّل، لا بل والتعارض، باعتبار تدرّج العلم واستحالة الحصول عليه دفعة واحدة.

فإن الأمر والحالة هذه كمن يبني بيته على كثيب مهيل من الرمل.

ولعل هذا ما مهد -لاحقًا- لحقبة عصور التنافر والتصادم بين الكنيسة والعلماء، وجنوح أوروبا نحو المادية التي غدت لا دينية التوجّه!!

لأن رجال الدين قدّسوا ما تناقلته الألسن وذاعت شهرته بين الناس، وصبغوه بصباغ الدين، ودعوا إلى نبذ ومحاربة كل معارض لها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وكفّروا كل من لم يُدِن بها.

ب- علماء النهضة في مواجهة خرافات الكنيسة

منذ أن لاحت تباشير النهضة الفكرية في أوروبا واطّلع العلماء على مفاهيم علمية جديدة في الفلسفة والرياضيات، والطبيعيات، والإلهيات، وآمنت بالعقل سبيلاً للمعرفة، ورفضت الخرافات التي لا برهان لها، وبرزت نظرية كروية الأرض التي اعتبرتها الكنيسة نوعًا من الهرطقة والكفر واضطهدت كل القائلين بها، وحكم على "كاليله" بالحرق لقوله بحركة الأرض حول الشمس، وحكم بالحرق أيضًا على "برونو" (العالم الطبيعي) لقوله بتعدد العوالم، وشهدت عصور الظلام في أوروبا حرق 32 ألف عالم من أصل 300 ألف ساقتهم الكنيسة إلى المحاكم.

ولعل طباعة الإنجيل وتداوله في أوروبا أظهر مدى التناقض الفاضح بين تعاليمه وممارسات رجال الكنيسة، ما أحدث ثورة عارمة في أوساط عامة الناس، وألهب النفوس، واحتدم الصراع، فامتنع الناس عن دفع الضرائب، لا بل ذهبوا بعيدًا لمصادرة أموال الكنيسة التي كانت تجمع تحت عنوان "صكوك الغفران"، وخاصة تلك الصكوك التي أصدرها الباب "لاوون" العاشر لبناء كنيسة القديس بطرس في روما، حيث اعتبر البابا مشتريها سيفوز بالجنة، حتى راحت الناس تتساءل مستنكرة "هل مفاتيح الجنة بيده"؟!.

ج - من مهازل صكوك الغفران [طابخ السمّ آكله]

وكان من مآثر "لاوون العاشر" أن أوفد راهبًا ألمانيًا من مدينة ليبزيغ يُدعى "جون تيزل"، لجمع أموالٍ جديدة من الأوروبيين تُضمّ إلى كنوزها.

وراح الراهب لا يترك بلدًا إلا ودخلها طلبًا للمال، يواكبه الحرس والنافخون بالأبواق (إيذانًا بوصوله)، حتى إذا بلغ الكنيسة واستوى إلى جانب محرابها، أنصت القوم وحنوا رؤوسهم ليستمعوا إليه وهو يقول:

[تعالوا أيها الناس واشتروا منّي صفحي وغفراني! بإمكانكم اليوم أن تنجوا أنتم وأصدقاؤكم من عذاب الجحيم].

فيرتجف الناس رهبة وفرحًا معًا!

وواصل الراهب سيره حتى بلغ مسقط رأسه ليبزيغ في ألمانيا، وأقبل الناس عليه بمئات الآلاف يشترون الغفران من رسول البابا، وهدّد الراهب من لا يشتري الغفران بالحرمان، فهلع الناس، وأسرع المتخلّفون إلى سوق خلاص النفوس والفوز بالجنة، ومنهم من اشترى الغفران مرارًا.

وفي نفس المدينة جرت حادثة طريفة، أرويها هنا لما فيها من ظَرَف وخفّةَ ظلٍّ، لما تحتويه من مغزىً عميق الدلالة في هذا الشأن:

جاء رجل ألماني يشتري الغفران من رسول البابا قائلاً له:

- هل يمكنك أيها الأب المقدّس أن تغفر لي منذ الآن، خطيئة أنوى أن اقترفها في المستقبل؟

فأجاب الراهب:

- أستطيع ذلك دون شكّ، فإن البابا سيد الأرض وحامل مفاتيح السماء، قد أعطاني القوّة الكافية لكي أفعل ما أريد.

فقال الرجل: إذا كان ذلك، فإني سوف أعاقب رجلاً عقابًا بسيطًا جدًا لا يؤذيه ولا يسيء إليه إلا قليلاً، فكم تطلب أيها الأب لغفران خطيئة بسيطة كهذه؟

- أطلب ثلاثين دولارًا.

- أنا فقير، والمبلغ كثير، غير أني أستطيع أن أدفع لك عشرة دولارات.

- لا. كيف يمكنني أن أغفر لك ما تنوي أن ترتكبه من الإثم -ولو بسيطًا- بمثل هذا المبلغ؟... وعلى كل حال أستطيع أن أبيعك الغفران بخمسة وعشرين دولارًا!

- قلتُ إني فقير، وأنني لا أملك هذا المبلغ كله، سوف أعطيك خمسة عشر دولارًا فقط.

فقال الراهب: لا تكثر المجادلة، إن غفران الذنوب له ثمن معروف، فإذا شئت أن أغفر لك ما سوف تقترفه من ذنب بسيط، فادفع عشرين دولارًا على الأقل!

فقال الرجل: هل تعتقد أيها الأب أن هذا المبلغ كافٍ لأن يمنحني الغفران في الأرض وفي السماء؟

- لا شك في ذلك، ألا تعلم أنني رسول البابا، وأنني أفعل ما يريده، وأن إرادته هي إرادة الأرض والسماء؟!

- إذن لقد اطمأنّ قلبي، خذ المال!

وذهب الرجل وقد حصل على وثيقة الغفران وعلى حماية القانون له من كل عقاب فيما سوف يقترفه، من ثمن بسيط!

وواصل الراهب بيع الغفرانات، وجمع الأموال الكثيرة، ثم رحل إلى مدينة ألمانية أخرى تدعى "زوتربوك"، وفيما كان في طريقه إليها مرّ بغابة كثيرة الشجر، فخرج عليه أفراد عصابة من قاطعي الطريق، برزوا له من بين الأشجار، وقبضوا عليه وأوثقوه، ثم أخذوا صناديقه واستولوا على ما فيها من أموال طائلة، وفرّوا هاربين في شعاب تلك الغابات.

وطار صواب الراهب، فقد أُخذ منه المال الذي حصل عليه ثمنًا لألوف الغفرانات، وهرع إلى محافظ المنطقة، وهو من الدوقات، ساخطًا لاعنًا منقطع النفس، وصاح:

- سُرقت؟!

ولما وقف المحافظ الدوق على تفاصيل الحادث ثار وخار ونبَحَ وهدرَ، واصطكّت أسنانه، وجحظت عيناه، وتورّم خداه.

فكيف يعتدي اللصوص على رسول البابا سيد الأرض وحامل مفاتيح السماء؟ ثم كيف يسطون على أموال البابا في منطقة هو حافظ الأمن فيها، وهو الحسيب النسيب (الدوق ابن الدوق)؟ وازداد شخيره ونخيره، ورفع قبضته مهددًا قائلاً:

سوف أقبض على اللصوص وأحرقهم جميعًا!

وتمّ القبض على اللصوص، وأُحضروا أمام هذا الدوق، فقال لزعيمهم:

لقد اقترفت إثمًا عظيمًا بالاعتداء على رسول البابا وسرقت أمواله، فماذا تقول؟

فأجابه زعيم العصابة:

لقد اشتريت الغفران سلفًا من رسول البابا وأخبرته أنني أنوى أن أقترف إثمًا، فباعني الصفح راضيًا مختارًا، وقبض الثمن، وهذا هو الإثم الذي كنت عازمًا على ارتكابه، وإليك وثيقة الغفران!

وقرأ المحافظ الدوق وثيقة الغفران، فإذا هي تغفر لحاملها إثمًا سوف يرتكبه، وتجعله في حلّ من كل عقاب في الأرض والسماء!

ونظر كل من الدوق والراهب إلى الآخر نظرةً تدلّ على الخيبة، وذلك أن وثيقة الغفران لها صفة القانون، فالحاكم لا يستطيع معاقبة السارق الذي غُفر له ذنبه سلفًا، وهو فوق ذلك لا يمكنه أن يسترجع المال المسروق، لأن في استرجاعه ما يُفقد الراهب هيبته، ويحمل الناس على الاعتقاد بأن وثيقة الغفران لا قيمة لها! وفي مثل هذا

الاعتقاد ما يدفع الناس في طريق الحرية التي يكره الدوق والراهب اسمها!

وهكذا حصل الرجل الفقير الذكي الظريف على الأموال التي جمعها الراهب وهو في مركبته الذهبية، من الجماعات الجاهلة، وعاش فيها عيشة مترفة[1]!

د- الكنيسة تخوض معركة الوجود

كانت النظرية السائدة في العصور الوسطى تقول بأن الله خلق كلاً من الكنيسة (وعلى رأسها البابا)، والدولة (وعلى رأسها الملك) خدمةً لعباده، لكنّ المصالح والأهواء والنزوع نحو الدنيا سيطر على أكليروس الكنيسة، فهم:

1- يملكون الأراضي الواسعة، ويفرضون الضرائب، ويتصرفون كإقطاعيين.

2- يعيشون حياة الترف، ويستغلون قدرات الطبقات المستضعفة.

3- ينشرون التعاليم التي تنهى الناس عن الثورة، وتحرضهم على الصبر والسكوت على الظلم.

جرّاء ذلك برزت حركات دينية تدعى بالإصلاحية، قادها بعض الرهبان المتنوّرين:

- فمارتن لوثر الألماني (1483-1546م) نشأ فقيرًا، وتخرّج من جامعة أرفرت، وانخرط في سلك الرهبنة، وتعمّق بدراسة الإنجيل، وصار فيما بعد أحد أساتذة جامعة ويتنبرغ، اعترض على صكوك لاوون العاشر، واعتبر ذلك مخالفًا لتعاليم المسيح، وإن البابا يتصرف كوريثٍ للرب على الأرض، في حين أنه كباقي الناس إنما يتقرب إلى الله بالإيمان والعمل الصالح.

فحورب لوثر وكُفِّر، وقام الأمبراطور "شارلكان" -أحد عملاء البابا- بتهديده بالقتل، وكذا حصل مع المصلح الديني الفرنسي يوحنا كالفن (1509-1564م)، الذي طارده ملك فرنسا فرنسوا الأول، ففرّ كالفن إلى سويسرا.

وسلوك الباباوات دفع بفريدريك الثاني شتاوفين (1194-1250م) ملك صقلية بالشك بالدين المسيحي، وقيل أنه مال إلى الإسلام وكان من مقاومي البابوية.

هذا، وقد خاضت الكنيسة وأباطرة أوروبا حروبًا عدة لتصفية الخارجين على براغماتيتها الإنجيلية، وقد سجّلت انتصارات آنية عديدة في ساح الوغى، وانهزمت في معركة الأديان، لأن تغلغل الوثنية الرومية الموروثة مسخ دين المسيح، وجعله عرضةً للهجوم وبابًا للصراع.

وقد كانت الدلائل تشير إلى انفجار بركان العقل في أوروبا، فقد حطم العلماء سلاسل القيوم والتقليد الديني، وكشفوا زيف النظريات التي حوتها كتب الكنيسة، وانتقدوها بحدة، وأعلنوا اكتشافاتهم واختباراتهم، فثارت ثائرة الكنيسة، فكفّروا العلماء واستحلوا دماءهم وأموالهم من أجل إنقاذ المسيحية، فأنشئت محاكم التفتيش - التي

سيأتي الحديث عنها- لمعاقبة الملحدين على حد زعم الباباوات آنذاك، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني نابضًا ضد الكنيسة، ووزّعت جواسيسها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، فاضطهدت وأحرقت... "وفيما يخص العالم الطبيعي "برونو" اقترحت بأن لا تراق قطرة واحدة من دمه، أي الموت حرقًا"[2].

وقد عيل صبر المتنورين والعلماء جراء ممارسة الكنيسة بحقهم، فصاروا حربًا عليها وعلى ممثليها، حتى قيل أن الحرب اندلعت بين زعماء العلم والعقل، وزعماء الدين المسيحي أو ما سمي فيما بعد بالديانة البولسية، وسرت مقولات تعتبر أن العلم والدين ضدان، فالإيمان بأحدهما كفر بالآخر.

2- محاكم التفتيش

جاء الإصلاح الديني في أوروبا ردًّا على ما كان من تعصب يُدان به، للقضاء على الفكر وحريته، وكبت كل محاولة يقوم بها العلماء للكشف عن أسرار الطبيعة.

وردًا على تلك المحاولات لهذه الحركات النهضوية "العلمية والفكرية"، قامت محاكم التفتيش في عدد لا بأس به من دول أوروبا التي كانت تحكمها الكنيسة، فأضرمت النيران، ورفعت سوط الظلم تأديبًا لكل مارقٍ على تعاليم الكنيسة، ولأيّ محاولة تُطلق إرادة الشعب نحو ذاته وحريته الإنسانية، لتكريس فكرة الإذعان فيهم.

... ويذكر التاريخ أن ملكة بريطانيا "ماري تيدور" وقفت ضد الحركة اللوثرية في بلادها، تلك الحركة التي كانت تقول [إن للشعب حقوقًا تُداس بأقدام السلطان]. وقد اقتادت الملكة راهبًا يدعى "جون روجرز" وأسقفًا كان يعتبر صديقًا للفقراء والمعوزين يدعى "جون هوبر"، وحكمت عليهما بالحرق، ومما قاله "هوبر" قبيل حرقه بلحظات:

[استمرّوا بمحكمتكم هذه، وابعثوا بالرجال والنساء إلى النار الآكلة، واعتزّوا بما لديكم من قوة وسلطان، غير أن كل قبس من النار التي تُشعلونها وتُحرقون بها الشرفاء، سيكون مشعلاً عظيمًا يُنير للبشر طريقهم إلى الحرية الحبيبة][3].

... وقد ارتكبت ملكة فرنسا "كاترين دي ميدسيس" مذبحةً في بارتملي في 14 آب 1527م، وكانت من أعنف المجازر، بتهمة المروق عن الدين.

وفي أسبانيا، وأثناء حكم الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا، والمجرم توركيماوا الذي ملأ أسبانيا رعبًا -وأصبح اسمه مقرونًا بمحاكم التفتيش، بعهدٍ أبرمته له الملكة إيزابيلا- أقدم توركيماوا على اتهام رجل أسباني غنيّ بالزندقة، فأحرقه واستولى على ثروته، وأما زوجة الرجل وأولاده فراحوا يطوفون في الشوارع متسولين[4].

وقد أُحرق الراهب الهولندي (فان ريزويك) بتهمة المروق والهرطقة عام 1512م في لاهاي، لأنه كان معجبًا بأستاذ العقل "أرسطو".

كل هذا يجري وعلى مسمعٍ وتحت رقابة ومباركة أوامر الكنيسة، الأمر الذي أيقظ الثائرين في أوروبا المكبوتة، التي عوقبت بلا هوادة، فخرج الثائرون وقهروا ظلمات الفتك، ومزّقوا سواد العتمات، غير مستسلمين لمخزيات الطبقية والإقطاعية الدنيّة الحمقاء، والتي كان ثمنها مئات الآلاف من الضحايا، لا بل الملايين في كلّ أوروبا، وقد أثمرت نصرًا ساحقًا على أمراء الكنائس، وأُعلنت حقوق الإنسان في دول عديدة، وفي طليعتها فرنسا عام 1789م، لتكّر السبحة لبقية أوروبا، معلنة نهاية عصور الظلام الديني.

الخاتمة: نهاية المآسي

كان من الطبيعي أن يؤدي منهج الكنيسة -والحالة هذه- إلى تفكك الواقع الاجتماعي، وشعور السواد الأعظم من الناس بالدونيّة، واستغلالهم باسم الربّ، إذ لم يبقَ من سمات الخزي، ورذائل الخُلق، وإقطاعية المتسلّط، وديكتاتورية الحاكم المطلق التصرّف، إلا ووصمت به الكنيسة، وإلا كيف تفسّر هذا العداء الاجتماعي العام المتنامي، والآخذ بالاتساع، والتجرؤ على أعلى سلطة دينية في العالم المسيحي؟! وسرت عملية الرفض والمواجهة للأكليروس، في حين كانت من الخطايا المميتة التي تُخرج مرتكبها من الدين، وتكون مدعاةً لسخط الله عليه، وخروجه من ملكوته بحسب تعاليم كنيسة التسلط آنذاك، حتى استعدّ المضطهدون للتضحية بالغالي والنفيس من أجل تقويض هذا البنيان المصطنع والمُخْتَلق، فسرت مسرى الروح في الجسد ومجرى الدم في العروق لإزالة كابوس الاستبداد والإرهاب الدينيين.

ثم ماذا؟.. انهزمت الكنيسة وانحلّ عقدها، واضمحلّت النصرانية في سلوك الأوروبي... لماذا لا؟..

فالانحطاط الديني المسيحي حسب رأي السفير السابق لبريطانيا في أميركا سنة 1938م مردّه إلى:

[حركة "لوثر" التي تدعى حركة إصلاح الدين، والتي قضت على وحدة أوروبا الثقافية والدينية، وانقسمت هذه القارة إلى إمارات شعبية مختلفة، أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطرًا على أمن العالم].

ثم استطرد قائلاً: [وكان من نتائج ذلك أيضًا أنه صعب على أوروبا أن توفّق بين روحها وحياتها توفيقًا ينقذها من القومية داهية هذا العصر الكبرى] (انتهى قول سفير بريطانيا).

فظهر الدين المسيحي كطارئ ونزيل ثقيل لا بد من نفيه والتبرؤ منه، حتى سرت في ألمانيا حالة العِداء للمسيح كونه من بني إسرائيل، حيث قال أحد المعلمين البروفسور أترني: [يجب أن يكون إلهنا أيضًا ألمانيًا].

وهكذا استمر الصراع حتى سقطت الكنيسة في معركة الوجود والفاعلية، وزويت عند أطراف القارة العجوز لا حول لها ولا قوة.

حتى غدا الإنجيل أناجيلَ، وغابت روح المسيح في هديه وصفائه وزهده عن سلوك من نادَوا بها، وصاروا أداة طيّعة بيد استعمار جديد يخوض صراعًا طويل الأمد لا ينتهي مع المسلمين.

ولعل ما أسهم في تأجيج ذلك جهل أوروبا المسيحية بحقيقة الإسلام، فالجهل به أمسك بتلابيب العقل الأوروبي، وسرَت مقولة دسَّها الرهبان وجلاوزة الكنيسة مفادها: "أن من يحاول معرفة شيء عن الإسلام والمسلمين سيصاب بالدنس".

لقد أثاروا دوافع الحسد والقلق في نفوس الأوروبيين من ذلك الجار القوي الغنيّ المخيف.

في حين كان المسلمون يعرفون عن المسيحية والمسيح (عليه السلام) أمورًا يجهلها المسيحيون أنفسهم، لما ذكر في القرآن الكريم عن مريم العذراء (عليها السلام) والمسيح(عليه السلام) حتى رفعه الله إليه. فقد أخذ المسلمون التراث الثقافي والفكري للمناطق المسيحية التي فتحوها، فتلاقت الثقافات وتلقّحت تجديدًا غنيًا، مرسيًا لقواعد العلم العظيم الذي نشره المسلمون في أرجاء المعمورة.

من هنا كان مأخذنا على الثائرين الجدد في أوروبا قلة إحاطتهم بفهم الآخر (الإسلام)، فالحفيظة، وشنآن رجال الدين، والاستعجال لم تسمح بالتريث أكثر، وإطلاق عموم الأحكام على عموم الأديان تجنّ وظلم، وبخس وافتراء.

...[وبدا واضحًا أن الحميّة الجاهلية، والهوّة التي خلّفتها الحروب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب دعوته محمد (صلى الله عليه وآله)، وعدم تجشّم العناء والمطالعة، وقلة الحرص على النجاة... زِدْ على ذلك تفريط المسلمين في تبليغ الإسلام، منعهم من الرجوع إلى الدين الإسلامي، والأخذ به ساعة يحتاجون إليه][5].

تلكم هي دعوتنا الحق منعًا لاستمرار الغموض، ودفعًا لثقافة السيطرة، بحثًا عن المعرفة الصادقة بمعايير محايدة وموضوعية، ترسي لقواعد الحوار بمنطوق موازين العقل، وتكون طليعة الكلمة السواء بالحكمة والموعظة الحسنة.

الهوامش

1 علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق: ج2 (بين علي والثورة الفرنسية) ص97-98-99-100-101؛ دار ومكتبة صعصعة، جد فحص - البحرين 2003م.

2 ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي الحسن الندوي، ص192؛ دار السلام للطباعة والنشر، 1978م، بيروت.

3 علي صوت العدالة، مصدر سابق، ص112.

4 علي صوت العدالة، مصدر سابق، ص48.

5 ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مصدر سابق، ص193-194.

دعوة الإسلام حكمةٌ وسلام

الشيخ محمد جواد البلاغي

العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي*

ملخص تاريخ الإسلام من بدء دعوته إلى حين انتشاره

إن بلاد العرب كانت على أقبح جانب من العبادة الوثنية الأهوائية، والعوائد القاسية الوحشية، وخشونة الظلم والجور، وإدمان الحروب والغارات.

قد امتازت كل قبيلة بجبروت رياستها، واستقلّت بعصبية قوميتها، حتى إن كل قبيلة اختصّت بصنم معبود، لئلا تخضع إلى قبيلة أخرى، واستمروا على ذلك أجيالاً متعددة تتراكم عليهم فيها ظلمات الوحشية. وضلالات الوثنية، وعوائد الظلم، وقساوة العداوة، والحروب المبيدة الفظيعة، بل كانت الدنيا بأسرها مرتبكة بين العبادة الأوثانية الصريحة، وبين التثليث وتجسيد الإله والسجود للأيقونات (الصور والتماثيل) وإن جرى لفظ التوحيد على بعض الألسن لفظًا بلا معنى، حتى إنك ترى معارف التوراة الدارجة في الإلهيات ناشئة من مبادئ وثنية يجب أن ينزّه عنها جلال الله.

وعند تراكم هذه الظلمات والضلالات، وهيجان براكينها الهائلة نبغ صاحب دعوة الإسلام والتوحيد الحقيقي (محمد)، وأعلن بين العرب بادئ بدء بدعوة الإسلام التي هي أثقل عليهم من الجبال، فدعاهم جهارًا إلى رفض معبوداتهم من الأوثان، وترك عوائدهم الوحشية، وإلى الخضوع لعدل المدنية، والتجمّل بالأخلاق الفاضلة والآداب الراقية، واستمر على هذه الدعوة في مكة نحو ثلاث عشرة سنة.

وفي السنة الثالثة من دعواه الرسالة أعلن بدعوته لعامة الناس إعلامًا تامًا، وصار ينادي بدعوته في جميع أيامه في المحافل والمواسم بجميل الموعظة، وقاطع الحجة، والإنذار بالعقاب والبشرى بالثواب، وحسن الترغيب والترهيب، وتلاوة القرآن، والإعذار بالنصيحة، لم يَهَبْ في دعوته طاغوتًا ولم يستحقر فيها صعلوكًا، يدعو الشريف والحقير والمرأة والعبد.

وقد آمن -في خلال هذه الدعوة- بدعوته الثقيلة على الأهواء من كل وجهة خلق كثير من أهل مكة وضواحيها من قريش وغيرهم، واحتملوا في سبيل ذلك أشد الاضطهاد والهوان، والجلاء عن الأوطان إلى الحبشة وغيرها.

فكم من شريف في قبيلته عزيز في أهله وقومه صار بإسلامه مهانًا مضطهدًا، وكل هذا لم يصدّ الناس عن الإسلام، إذ لا يصدّ الضعيف ما يقاسيه من العذاب ولا يصدّ الشريف العزيز ما يلاقيه من الهوان، يرون الإسلام هو العز والشرف والحياة والسعادة.

ففي السنة الخامسة هاجر إلى الحبشة من جملة المؤمنين اثنان وثمانون رجلاً من معاريف قريش وأتباعهم وذوي العزة، ومعهم مثلهم أو أكثر منهم من النساء المسلمات الشريفات، وبقي كثير من المؤمنين في مكة وغيرها، يقاسي أكثرهم سوء العذاب، وكل هذا لا يصدّ الناس عن إظهار الإسلام.

وقد أقبل على الإيمان بدعوة (محمد) وهو بمكة قبائل الأوس، والخزرج، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وخزاعة. ولا يخفى أن محمدًا كان عزيز قريش من بيت سيادتها وعزها، تسمّيه قريش (الصادق الأمين)، يُودع عنده مشركو قريش والعرب ذخائرهم إلى حين هجرته، ومع ذلك كان يقاسي الأذى الشديد من المشركين، والاستهزاء والتكذيب لدعوته، والحبس مع بني هاشم في الشعب، وهو مع ذلك متمسّك بالتحمّل والصبر الجميل وهدو السلم، لا يفتر عن دعوته ونشرها، وبثّ تعاليمه الفاضلة، وحماية التوحيد وإبطال الوثنية.

حتى إذا اشتدّ عليه الاضطهاد وتعاقد المشركون على قتله، عزم على أن يقطع مادة الفساد ويحافظ على دعوة التوحيد والإصلاح، ويعتزل عن بلاده وهيجان المشركين للشر، فهاجر إلى المدينة لنشر دعوته، وجمع المسلمين في حماية جمعية واحدة، فانتظم له في هجرته -زيادة على من ذكرنا إسلامه- إسلام كثير من العرب بالطوع والرغبة، ومن جملتهم قبائل اليمن وحضرموت والبحرين، بل ما من قبيلة من القبائل التي حاربته إلا ويذكر التاريخ المعلوم أنّ أناسًا منها أسلموا بالطوع والرغبة، فمنهم من تجاهر بإسلامه ومنهم من تستّر به إلى حين.

حروب رسول الإسلام

وأما حروب رسول الإسلام فإن أساس التاريخ الذي يذكرها يقرنها بذكر أسبابها التي يعلم منها أنه لم يكن حرب من حروبه ابتدائيًا لمحض الدعوة إلى الإسلام، وإن جاز ذلك للإصلاح الديني والمدني، وتثبيت نظام العدل والمدنية، ورفع الظلم والعوائد الوحشية الجائرة القاسية، لكن دعوته الصالحة الفاضلة تجنبت هذا المسلك وسلكت فيما هو أرقى منه وهو الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما جاء هذا التعليم الأساسي في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل المكية **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}**.

وقد استمرت سيرته الصالحة على ذلك، فكانت حروبه بأجمعها دفاعًا لعدوان المشركين الظالمين عن التوحيد وشريعة الإصلاح والمسلمين، ومع ذلك فهو يسلك في دفاعه أحسن طريقة يسلكها المدافعون، وأقربها إلى السلام والصلاح، يقدّم الموعظة ويدعو إلى الصلاح والسلام ويجنح إلى السلم، ويجيب إلى الهدنة ويقبل عهد الصلح، مع عرفانه بأنه المظفّر المنصور، وهاك ما ينادي به التاريخ من أسباب حروبه وغزواته.

حرب بدر وأسبابها

فأول حروبه المعروفة بعد هجرته هي حرب بدر، وكانت في السنة الثانية من الهجرة، وسببها أن المشركين من قريش اشتدّ اضطهادهم للمسلمين ومن يريد الإسلام بمكة، ومنعوهم عن الهجرة والفرار بدينهم، حتى ضيّقوا عليهم بقساوة الاضطهاد والحبس لكي يردّوهم إلى شرك الوثنية وعوائد الضلال، فإنهم عرفوا من سيرة (محمد) أنه لا يحب إثارة الحرب فزاد طغيانهم لمّا أمِنوا جانبه، فأراد أن يرهبهم بالقوة والمنعة، ويهدّدهم بالتعرض لسبيل تجارتهم إلى الشام، لكي تلجئهم الضرورة الاقتصادية وحاجتهم لتجارة الشام إلى الكفِّ عن ضلالهم في اضطهاد المؤمنين بمكة ومنعهم عن الهجرة والفرار بدينهم، فندب إلى ذلك بعض أصحابه، فنهض منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على أضعف عدة، لم يكن معهم إلا سبعون بعيرًا يتعاقبون عليها وأسياف قليلة.

فقصدوا قافلة قريش المقبلة من الشام، فسمع بذلك رئيس القافلة أبو سفيان، وأرسل إلى مكة يستصرخ قريشًا لتخليصها، فخرجوا بعدة كاملة من الخيل والسيوف والدروع، وكانوا نحو ألف رجل، واتفق أن قافلة قريش نجت من أصحاب (محمد)، ولكن قريشًا لم يكتفوا بنجاة قافلتهم، بل قصدوا محمدًا وأصحابه اغترارًا بكثرة عددهم وقوة عدتهم، وقد منعهم عقلاؤهم عن قصد (محمد) فلم يقبلوا، حتى اجتمعوا مع المسلمين في مكان يسمى (بدرًا) وابتدأوا بالقتال، فانتصر المسلمون انتصارًا باهرًا وقتلوا من صناديد قريش سبعين وأسروا سبعين، ورجعت قريش إلى مكة بالانكسار.

غزوة بني القينقاع

ولما قدم (محمد) في هجرته إلى المدينة رأى أن موقع الإسلام والمسلمين بين اليهود في خطر، فإنهم كانوا محدقين بالمدينة، وهم بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، فكان أول أعمال (محمد) في هجرته أنه عاهد هؤلاء اليهود على السلم وأمانة الجوار وأن لا يكيدوا المسلمين ولا يخونوهم ولا يساعدوا عليهم عدوًا، ولكن بني قينقاع غدروا بعد وقعة بدر وصاروا يكاتبون المشركين، وأنشبوا حربًا بينهم وبين المسلمين، فغزاهم محمد وانتصر عليهم، فطلبوا النجاة بالجلاء عن بلادهم فسمح لهم بذلك.

حرب أحد

ثم تجمّعت قريش بعدتها وعديدها وغزوا (محمدًا) وأصحابه إلى المدينة في السنة الثالثة من الهجرة حتى وصلوا إلى مكان يقال له (أُحد) وهو يبعد عن المدينة بأميال يسيرة.

تأكيد العهد مع اليهود وجلاء بني النضير

ورأى محمد أن اليهود لا يكادون يثبتون على عهدهم، فقصدهم هو وأصحابه لتأكيد العهد وأخذ الميثاق منهم، فأبى بنو النضير، فعدل عنهم إلى بني قريظة، فأعطوه عهودهم مجددًا على أن لا يغدروا بهم ولا يساعدوا المشركين عليهم، فرجع عنهم إلى بني النضير وحاصرهم على إعطاء العهد، فاختاروا الجلاء عن بلادهم، فسمح لهم بذلك حفظًا للسلام بين البشر، فحملوا كل ما يقدرون على حمله، ونزل أكثرهم في (خيبر) لكي يكيدوا محمدًا عن قرب.

حرب الأحزاب

ثم جمعت قريش في السنة الرابعة من الهجرة جموعها منها ومن أحلافها من القبائل، وكذلك (غطفان) وأهل نجد، وتحزبوا على قتال (محمد) وأصحابه، وكان الساعي في هذا التحزب واجتماع غطفان وأهل نجد مع قريش على الحرب هم جماعة من يهود بني النضير الذين أجلاهم محمد ونزلوا خيبر، منهم آل أبي الحقيق وغيرهم، فقصدوا المدينة بجيش عظيم يعدُّ بنحو عشرين ألفًا، فخندق (محمد) على المدينة وحاربهم، وقد كانوا كاتبوا بني قريظة على الغدر بمحمد والنهوض إلى حربه، فخفّ بنو قريظة إلى الغدر ونقض العهد، وبدا منهم الاعتداء، فأرسل إليهم (محمد) حليفهم سعد بن معاذ رئيس الأوس مع جماعة من الأوس والخزرج فوجدوهم على أقبح الغدر، حتى صار بعضهم يغِير على بيوت المدينة ومجامع العيالات.

غزوة بني قريظة

وحينما انكسرت قريش وانحلّ جيش الأحزاب عطف محمد وأصحابه على الغَدَرة بني قريظة فحاصروهم، فجعل بنو قريظة حكمهم إلى سعد بن معاذ رئيس الخزرج لأنهم كانوا حلفاءه قبل الإسلام، وظنوا أن سعدًا يتساهل معهم، فوافقهم محمد على ذلك ولم يصمّم على حربهم، فحكم سعد بقتلهم فنفّذ حكمه في الغادرين، ولو أنهم اختاروا الجلاء إلى حيث يُؤمن غدرهم لسمح لهم (محمد) كما سمح لبني قينقاع وبني النضير، ولو شفع فيهم سعد لتركهم له، فإن المعلوم من حال (محمد) أنه كان يحبّ السلم وصلاح البشر والعفو إذا أمن من فساد عدوه، ولم ينصبغ العفو بصبغة الضعف والوهن.

حرب بني المصطلق

وفي السنة الخامسة أو السادسة صار بنو المصطلق يستعدون لحرب (محمد)، فغزاهم وظفر بهم.

صلح الحديبية

وفي ذي القعدة من سنة ست قصد محمد مكة للحج والطواف بالبيت ومعه من أصحابه نحو سبعمائة رجل، وقدّموا ذبائح العبادة سبعين بعيرًا، وجعلوا عليها علائم الهدي لكعبتهم ورسوم العبادة، لكي يطمئن أهل مكة بالسلم، فصدّه أهل مكة واستعدّوا لحربه وطلبوا رجوعه، فسمح لهم بما طلبوا وتساهل معهم بالصلح حسبما يقتضيه حبُّ السلم، ونحر في مكانه هديه للكعبة ورجع.

حرب خيبر

وإن بني النضير الذين نزلوا بعد جلائهم في خيبر وخضع لهم أهلها لم يزالوا يسعَون في حرب (محمد) وقطع أثره، وهم الذين سعوا في حرب الأحزاب ولم يزالوا على إثارة الفتن، فغزاهم في أواخر السنة السادسة، ففتح حصونًا لبني النضير، منها حصن ناعم، ومنها القموص حصن بني أبي الحقيق، ومنها حصن الصعب بن معاذ وباقي حصون خيبر، إلا حصنين (الوطيح، والسلالم)، فإن أهلهما طلبوا من (محمد) أن يسيِّرهم ويحقن دماءهم فسمح لهم بذاك.

فتح مكة

وقد كان في صلح الحديبية أن خزاعة دخلت في حلف (محمد)، وبني بكر دخلت في حلف قريش، فعَدَت بنو بكر وقريش على خزاعة بالحرب العدوانية، فجاء مستصرخ خزاعة إلى (محمد) فتوجّه في سنة ثمان بجيشه إلى مكة في عشرة آلاف بعدة كاملة، ولما خافت منه قريش وأحلافها وضعفوا عن مقاومته لم تحمله سوء أفعالهم على الانتقام منهم، بل دخل مكة بأرأف دخول وأكرم معاملة، فكأنه ساق إلى قريش جيش العفو وامتنان الرحمة وكرم الأخلاق.

حرب هوازن

ولما سمعت هوازن بفتح مكة جمعت جموعها لحرب (محمد)، فقصدهم وحاربهم وغنم أموالهم وذراريهم، فوفد رجالهم عليه بعد أن أسلموا في هزيمتهم طوعًا، فاسترحموه، فخيّرهم بين ردّ السبي وردّ الأموال، فاختاروا رد السبي، فاسترضى المسلمين في ذلك فأجابوه، فردّ السبي وكان نحو ستة آلاف ما بين امرأة وطفل وقد كانت ثقيف من جملة المنهزمين من جيش هوازن، فرجعوا إلى الطائف وتحصّنوا بحصونهم لحرب (محمد)، فوجّه إليهم بعض جيشه.

حرب مؤتة وحرب تبوك

وأما بعثه الجيش إلى الشام، حيث حاربوا جيش الروم والعرب والرومانيين في (البلقا) شرقي بحيرة لوط، ومسيره بجيشه إلى تبوك، فكان الداعي لذلك أن هؤلاء تظاهروا بالعداوة للإسلام و(محمد) واستخفّوا بحرمته، وقتلوا رسله الذين أرسل معهم كتبه لدعوة التوحيد، مع أن العادة المستمرة أن الرسول حامل الكتاب محترم لا يقتل، ولا يقتله إلا من تجاهر بالطغيان والعداوة لمن أرسله، فإنّ (محمدًا) كاتب ملك الروم في الدعوة إلى صلاح الإسلام وتوحيده الحقيقي حينما كان قيصر راجعًا مع جيشه من انتصاره على الفرس، فتجرأ شرحبيل الغساني على قتل الرسول حامل الكتاب، واستعدّ الروم وأتباعهم لعداء (محمد) وحربه، فاستعدّ لدفاعهم وعدم الخضوع لجرأتهم التي تهدّد دعوة التوحيد والإصلاح.

سراياه وتجريداته

وأما سرايا (محمد) وتجريداته فكلّها كانت دفاعية، يردّ بها كيد الغادرين ويدافع بها من يستعد لحربه، ويسعى في الفساد والبغي، ولم تكن فيها مهاجمة ابتدائية على هادئ مسالم كما يشهد بذلك معلوم التاريخ.

سيرة محمد في دفاعه

وقد كانت حروبه الدفاعية محدودة بالحدود الصالحة فيما قبلها وما بعدها، وكانت محدودة فيما قبلها بالدعوة إلى التوحيد الحقيقي ومدنية العدل، والكفّ عن عوائد الظلم والوحشية، ثم بالدعوة إلى الصلح وحفظ السلام، والمعاهدة والهدنة، ومحدودة في آخرها بقبول العدو لدعوة التوحيد والعدل، أو طلبه للصلح أو الهدنة.

وقد كان (محمد) في جميع ذلك يشدّد النهي عن قتل النساء والأطفال والمشائخ العاجزين والرهبان المعتزلين، وكان يجمع بين الرحمة وحقوق أصحابه المجاهدين، فيسمح برحمته بكل ما يسمح به أصحابه من السبي والغنائم، ويرعى للأسير الشريف حرمة شرفه، ويطيِّب قلوب الأسرى بلسانه وقرآنه، ويوصي أصحابه بهم ويرغِّبهم في عتقهم، حتى إن العتق في شريعته من العبادات الواجبة في بعض الموارد... هذا ملخص سيرة (محمد) في دعوة الإسلام.

وأما المعروف من تاريخ العرب المدوَّن وحالهم الموروث الذي نشاهده، فهو أنهم أمة حرب وتحزب وشدة طغيان وتعصب، وقد كانوا في عصر الدعوة الإسلامية قبائل فوضى، لا تصدّهم عن طغيانهم وظلمهم سلطة سياسة ولا قانون حكومة، بل كانت كل فرقة تدافع عن نفسها بنفسها، فليس من الممكن في العادة أن تستقيم بينهم دعوة صالحة تضاد عبادتهم وعوائدهم، وترفض وثنيتهم وأوثانهم، وتهدّد تحزبهم الوحشي وفوضويتهم وعصبية رياستهم العدوانية، وتلوي أعناقهم إلى الخضوع إلى عدل المدنية وناموس السلام ما لم تكن تلك الدعوة معتزّة بقوة دفاعية.

دعوة المسيح

وأما دعوة المسيح في بني إسرائيل فلم يكن فيها ما يبهظهم في أصول ديانتهم وعباداتهم وناموس شريعتهم، بل كان أساس دعوته هو الحثّ على لزوم التوحيد وحق العمل بالشريعة وحفظ وصايا التوراة، والتعليم بمكارم الأخلاق وحسن العدل، وهذا مما يرتاح له نوع بني إسرائيل، ولم يكن في دعوة المسيح إلا أنها كانت تتعرض لرياء الكهنة والكتبة وجبروتهم في الرياسة الدينية، وأكلهم الدنيا باسم الدين، وهذا أيضا مما ترتاح إليه نفوس العامة.

ولكن لمحض ذلك قامت قيامة الكهنة والكتبة وأنصارهم، وجرى من أعمالهم مع المسيح والمؤمنين به ما تسمعه من التاريخ والأناجيل من أنواع الاضطهاد، مع أن قدرتهم كانت محدودة بالسياسة الرومانية، لا يستطيعون أن يعملوا شيئًا إلا بالمحاكمة والتطبيق على قوانين السياسة بالاستعانة بالكذب وشهادة الزور، وبذلك صالوا على المسيح والذين من بعده من أصحابه.

فكيف حال الدعوة الإسلامية التي سمعت حالها مع العرب والوثنيين المتوحشين الذين شرحنا لك حالهم، فهل يمكن في العادة أن تستقيم بدون دفاع؟ وهل يصح في حكمة الإصلاح الديني والاجتماعي أن لا تعتز هذه الدعوة بالدفاع؟ وهل يجوز أن تسلم أمرها بالوهن إلى التلاشي بعدوان أضدادها.

يتبع =

- اختير هذا النص من كتاب [الرحلة المدرسية] للعلامة الشيخ محمد جواد البلاغي، بتصرف.

تتمة مقال = دعوة الإسلام حكمةٌ وسلام

استعداد المسيح للدفاع بالسيف

إن الأناجيل قد ذكرت وهن التلاميذ وضعفهم عن الصبر على الشدائد، وتفرقهم عن المسيح عند هجوم اليهود عليه كما أخبرهم به المسيح قبل ذلك،، وقد تمّ إحصاء هذا كله من الأناجيل في الجزء الأول من كتاب الهدى[1] صحيفة 30 و 31، فراجعه لتعرف أن ألوفًا من أمثالهم لا يقومون مقام واحد من أصحاب (محمد) في الصبر والثبات على الإيمان والتفاني في سبيله.

ومع ذلك فإنجيل لوقا يذكر في العدد السادس والثلاثين من الفصل الثاني والعشرين أن المسيح أراد من تلاميذه الاستعداد للدفاع بالسيف وقال لهم: (من ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفًا)، ولكن يا للأسف لم يحيوا أمره المؤكد لهم جميعًا بالسمع والطاعة، بل قالوا قول المتثاقل المتشبث بالمعاذير (ههنا سيفان)، فلم يرَ المسيح في جواب

تثاقلهم إلا أن يقول: (يكفي)، وظاهره أن جوابكم يكفي في بيان وهنكم.

إن اليهود والنصارى يعتقدون أن التوراة الموجودة هو كتاب الله جاء بشريعة الله في كلام الله لموسى رسوله، وقد كثُر في هذه التوراة الأمر بالمهاجمات الحربية الابتدائية في الحروب القاسية الآمرة بذبح الأطفال والنساء، والتوراة وكتاب يشوع (يوشع) يذكران أن موسى الرسول ويشوع مختار الله قد عملا بهذا الأمر القاسي على أقسى وجوهه[2]، مع أن التوراة وكتاب يشوع لم يذكرا أن ذلك كان لأجل الدعوة إلى التوحيد والإيمان والإصلاح، بل لم تذكر التوراة غاية لهذه الحروب القاسية إلا انتهاب الأرض من سكانها المطمئنين بها وإعطائها لشعب بني إسرائيل الذين لم يستقروا على التوحيد والشريعة والطاعة جيلاً واحدًا.

فهل من الصواب وشرف الإنصاف أن نغضّ الطرف عن هذا كلّه، ونعترض على الإسلام دين التوحيد الحقيقي والإصلاح والمدنية حيث اضطرته الأحوال إلى أن يدافع عن صلاحه عدوان الوثنية وفساد الوحشية؟!

وأنت إذا تأملت في فلسفة الإصلاح الديني الاجتماعي بل وعواطف الاجتماع، رأيتها بوجدانك تسوّغ لمحمد في عصره المظلم بالظلمات المتراكمة أن يبتدئ بالمهاجمة في سبيل إصلاحه، فكيف نعترض عليه إذا سلك أرقى مسلك في الإصلاح، ألا وهو الدفاع الجميل الذي تقوم به الحجة، ويحدّده الصلاح وعواطف الرحمة بأكرم الحدود وأشرفها.

خلاصة الكلام في دفاع الإسلام

وأخيرًا أقول: إنك إذا نظرت إلى التاريخ نظر حرّ تجد أن الذين نالهم السيف من الذين دافعهم (محمد) لا يبلغون عُشر الذين آمنوا به بالطوع والرغبة وفدوا أنفسهم وكل غال دون دعوته الكريمة، وإن هؤلاء الذين انقادوا إلى الإسلام بالسيف لمّا تشرّفوا بنعمة الإسلام صار (محمد) أحب الناس إليهم، وذلك لما وجدوه من صلاح دعوته، وحسن سيرته في تبليغها، وإجراء شريعتها فيما عاملهم به من التحمّل والمُلاينة، وجميل الدفاع، وعواطف الرحمة، وكرم المروءة، وحسن الخلق، وحسن الولاية، وإن حروبه معهم وإن كانت لأجل أشرف الغايات لم تكن إلا دفاعًا جميلاً لحماية الإصلاح الديني والمدني، مقرونةً بحسن المعاملة وجميل الصفح وعظيم المنّ وأيادي الرحمة مما لا يتصور من مُحارب مظفّر معتزّ بنصيحة أصحابه وتفاديهم في سبيل نصره.

نعم كان كثير من النائين عن مركز (محمد) ينتظرون بإسلامهم قوة الإسلام وارتفاع الموانع بينهم وبينه، ولأجل ذلك تقاطرت إليه قبائلهم بالطوع والرغبة عندما ارتفعت الموانع.

إن من أنعم النظر في التاريخ وفلسفة الحقائق لا بد له من أن يعترف بما قلناه، وإن كان النصارى الغربيون يودعون في أذهان العوام أن (محمدًا) كان على أعظم جانب من القساوة الحربية والتهاجم العدواني، وأن دينه لم ينتشر إلا بالسيف العدواني القاسي، وأن ديانته وثنية وحشية، ولكن بعد النظر إلى التاريخ والتحقق في دين

الإسلام يتضح أن الحقيقة على ما شرحناه، وأن توحيد الإسلام هو التوحيد الحقيقي.

الإسلام والمسيح

إن من أسباب نفرة النصارى من الإسلام هو توهّم أنه يقطع علاقتهم بالدين المسيحي، ويكدّر صفاء إيمانهم بالسيد المسيح، ويشوّش محبتهم له واعتصامهم به.. ولكن واقع الحال أن الإسلام لا يقطع إلا علاقتهم بالتثليث، وسرّ الفداء، وحمل آثام الناس ولعنات الناموس على سيدنا المسيح وحاشاه...

إن الإسلام بقرآنه وبيانه يُمجّد رسالة المسيح، وينادي بقدسه وطهارته، وبرّه وكماله، ويبرئه عما لوثت به الأناجيل قدسه، فكيف يكدّر صفاء إيمان النصارى به، نعم إن الإسلام ينفي ألوهية المسيح، وينفي الإيمان بألوهية البشر المضطهد.

ولعله ينقدح في نفوس البعض أن الإسلام اضطهد الكنيسة الشرقية الزاهرة، ولكن الحقيقة هي أنه لم يُرِد منها إلا أن تتنزه عن شرك التثليث البرهمي وعبادة الصور والأيقونات، وزخرف التسابيح الموسيقية، وخداع الغفرانات وتأثيراته المعروفة، وهل كانت زهرة الكنيسة إلا بهذه الأمور المظلمة.

إن الإسلام جعل للكنيسة أن تبقى على صورتها بضمان حمايته بشرط أن تعطيه عهدًا على السلم وعدم الغدر، وأن لا تتجاهر بالمنكرات وشرب الخمر ومضادة الإسلام. ألم تبقَ الكنيسة في الشرق حين قوة الإسلام الحربية آمنةً مطمئنةً، يصدع ناقوسها مع أذان المسلمين، ويجلس قساوسها محترمين مع علمائهم، تجري في أعيادها ومواسمها على رسومها؟!

النظر في دين الإسلام ورسالته وقرآنه

لا يخفى على من نظر في القرآن بنظر حر أنه جرى بكرامة منهجه على حقيقة الحكمة واللطف في الدعوة إلى حقيقة التوحيد وشريعة العدل والمدنية، اللذين هما المقصود الأصلي والمطلب الأساسي، فسلك في أمرهما أحسن مسلك في الحجة، فلم يهاجم في الأمور الثانوية العرضية بصراحة تثير العصبية فتكون معثرة في سبيل المقصود الأصلي وروح الإصلاح مهما أمكن البيان لأولي العقول بنحو جميل، وليس من حكمة الدعوة لأهل الكتاب أن يجاهرهم بالصراحة بأنّ كتبهم التي بأيديهم قد كثُر فيها التحريف والتبديل والكفر الوثني والخرافات الكثيرة والتناقض الظاهر، إذ لا يخفى أن المجاهرة بذلك تهيج داء العصبية المهلك، وتنفر عن الإقبال إلى الإيمان الصحيح، وتصرف عن الإصغاء إلى بيان الحق.

والهداية إلى الحق لا تنحصر بالمجاهرة التي ذكرناها، بل إن القرآن أظهر ذلك وبيّنه وأوضحه بأحسن بيان وأجمل إيضاح، فأوقف ذوي العقول على بعض موارد التبديل والتحريف والزيادة بخصوصياتها، بحيث تتنبه عقولهم ووجدانهم لذلك على حين غفلة من هياج العصبية، فتعرّض لذكر القصص التي لها نحو وقوع في التاريخ فنزّهها

عن الخرافات والأغلاط الزائدة، وأوردها على الحقيقة المعقولة استلفاتًا للعقول إلى الخرافات الدخيلة في الوحي، وأما ما لم يكن له نحو وقوع فلم يتعرّض لتكذيبه بالصراحة لكنه أودع في معارفه ما يوضح تكذيبه، وهذا شيء في غاية الحكمة بحسن الإرشاد.

فالقرآن بجميل إشارته ووضوح حجته يشير إلى كذب جملة من منقولات العهدين الرائجين، وإليك جملة من موارد ذلك:

فمن ذلك: أن العهد القديم والعهد الجديد قد نصّا على نبوة يعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان وأرميا والمسيح عليهم السلام، وأنهم أُكرموا بالوحي والقداسة والأمر بإرشاد للناس، ومع ذلك ينسب العهدان إلى هؤلاء الأنبياء الكرام ما ينافي مقام النبوة والإمامة في الناس للإرشاد والتعليم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كذب هذه النسبة الساقطة بقوله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}**، (كما تقتضيه الحكمة وجلال الله وقدسه)، **{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}**[3]، فإن الكذب، والخديعة، والجرأة، وسوء الأدب مع الله، وخيانته، وعدم الإيمان به، والاستهزاء بوعده، ونسبة الخداع والكذب إليه، والزنا الفاحش بالمحصنات، والغدر بالمؤمنين، والدعوة إلى الشرك بالله، وعبادة غيره، وبناء مشاعر الأوثان، والقول بتعدد الأرباب والآلهة، والتحريف، هذه كلها من أقبح الظلم، ومرتكبها من الظالمين، والعقل والوجدان يُقبّحان ائتمان الظالم على الرسالة والنبوة وإمامة الدين والتوحيد والشريعة.

ومنها: قصة آدم (عليه السلام) وأكله من الشجرة، وما فيها من نسبة الكذب إلى الله عز وجل (وحاشا لله)، حيث أخبر آدم أنه يوم يأكل من شجرة الحسن والقبح يموت، بينما ينسب الصدق إلى الحية التي هي إبليس لعنه الله، حيث أخبرتهما الحية أن تلك الشجرة التي نهيا عن الأكل منها هي شجرة معرفة الحسن والقبح، فلما أكلا منها لم يموتا كما أخبرهما الله عز وجل، وإنما أصبحا عارفين بالحسن والقبح كما أخبرهما إبليس لعنه الله[4].

ومنها: خرافة أن الله جسم يتمشى، وله صوت، ويختبئ منه آدم، ويقول لآدم أين أنت..؟ من أعلمك أنك عريان..؟ هل أكلت من الشجرة..؟. وأن آدم صار كواحد من الآلهة في معرفة الحسن والقبح.. وأن الإله خشي أن يأكل آدم من شجرة الحياة فيعيش إلى الأبد[5].

ومنها: أن يعقوب عليه السلام خادع أباه إسحاق وكذب عليه مرارًا لكي يأخذ منه البركة[6].

ومنها: خرافة مصارعة يعقوب مع الله وما فيها من الكلمات الوثنية، فإن القرآن يوضح بطلان هذه الخرافات بما تضمنته معارفه وتعاليمه بحقيقة التوحيد وجلال الله وقدسه وأنه الواحد القهار[7].

ومنها: ما نسب إلى موسى عليه السلام من الجرأة على الله بالخطاب والشك في وعده[8].

ومنها: أن هارون صنع العجل الوثني لكي يتخذه بنو إسرائيل إلهًا ويعبدوه من دون الله، وصنع أمام العجل مذبحًا لعبادته، مع أن الله في ذلك الحين كان يكلّم موسى في تقديس هارون بالكلام الطويل لرياسة الدين والشريعة، وإن الله كلّم هارون في أمور الدين والشريعة مع موسى ومنفردًا قبل واقعة العجل وبعدها[9].

في حين أن القرآن ينسب عمل العجل والدعوة للشرك إلى السامري (الشمروني) من عشيرة شمرون ابن يساكر ابن يعقوب الذين كان منهم مع موسى ألوف، ويبرئ هارون من أمر العجل، ويوضّح أنه نصح بني إسرائيل ونهاهم عن عبادته، وأخبرهم بفتنتهم وضلالهم.

فالقرآن أوضح حال الخرافة الجامعة بين نبوة هارون وتقديس الله له والدوام على تكليمه، وبين كون هارون يدعو إلى الشرك ويصنع العجل الوثني ويبني له مشعر العبادة[10].

ومنها: ما ورد من أمر موسى عليه السلام بقتل الأطفال، وجعله شريعة جرى عليها خليفته يشوع (يوشع)، حيث ورد في التوراة أنه لما تغلب بنو إسرائيل على المديانيين وسبوا نساءهم وأطفالهم، أمرهم موسى أن يقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة ثيبة، وأما الأطفال من النساء اللواتي لم يقربهن ذكر فإنهن يبقين حيات لهم، وقد كنّ اثنين وثلاثين ألفًا.

وأن الله أمر بني إسرائيل أن يحرموا مدن الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين، ولا يبقوا منها نسمة أصلاً من البشر أو من البهائم، وعلى ذلك جرى يوشع بن نون في حروبه، وأن المقتولين من الأطفال والنساء يزيدون على مئات الألوف[11].

ومنها: ما ورد في التوراة عن الله جل شأنه أن موسى وهارون عليهما السلام لم يؤمنا بالله، وعصياه، وخاناه[12].

ومنها: ما ورد من أن أرميا نسب الخداع والكذب إلى الله جل شأنه[13].

ومنها: ما نسب إلى سليمان عليه السلام من اتّباع الأوثان وعبادتها وبناء مشاعرها، حيث تذكر التوراة الرائجة بأن سليمان خالف الشريعة وتزوج بالنساء المشركات، فأملن قلبه وراء آلهة أخرى، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وبنى مرتفعة لكموش رجس الموابيين، ولمولك رجس بني عمون، وعمل لسائر نسائه المشركات مثل ذلك.

وقد تكرر نسبة هذا العمل الإشراكي لسليمان في العدد الثالث عشر من الفصل الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني.

فكيف يرضى أحد أن يقال في جلال الله أنه يختار لإنقاذ عباده من الشرك والفساد رجلاً يعلم أنه يشرك، ويدعو إلى العبادة الوثنية، ويعمل أوثانها، ويبني مشاعر عبادتها؟![14]

ومنها: ما ورد من أن (امنون) بن داود عشق أخته ثامار بنت داود حتى زنا بها.. وقد سمع داود بذلك، فلم يعامل (امنون) بحدود الشريعة.. وأن (أبشالوم) بن داود زنا بسراري أبيه ونسائه على السطح بمنظر بني إسرائيل، ولما مات بكى عليه داود كثيرًا بصراخ، قائلا: من يجعل موتي أنا عوضًا عنك يا أبشالوم ابني يا ابني[15].

ومنها: ما نسب إلى داود (عليه السلام) من نسبة الزنا بامرأة أوريا المؤمن المجاهد الناصح، وحكاية الحمل من الزنا، فذلك مما تقشعرّ منه الجلود، ولا يصدر من أكثر الفسّاق المتهتكين الخائنين[16].

ومنها: قول التوراة الرائجة أن موسى وهارون وابنيه وسبعين من شيوخ بني إسرائيل رأوا الله وتحت رجليه شبه صنعة العقيق، ولم يمد الله يده إليهم بل رأوه وأكلوا وشربوا.

في حين أن في آيات القرآن ما يكذّب هذه الحكاية ويسفّهها، مضافًا إلى أن القرآن الكريم يكذّب خرافة رؤية الله -المتكررة في التوراة والعهد القديم -بقوله تعالى في الآية الثالثة بعد المائة من سورة الأنعام المكية: **{لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}**[17].

ومنها: حكاية الذين جاؤوا إلى إبراهيم وإلى لوط، واضطراب التوراة الرائجة في عددهم، وفي أنهم الله أو ملائكة، وذكرت أنهم أكلوا من طعام إبراهيم ولوط، في مقابل بيان كرامة القرآن في ذكره لهذه القصة على الوجه المعقول، حيث يقول تبارك وتعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}**[18].

ومنها: أن إنجيل يوحنا ينسب إلى المسيح (عليه السلام) قوله بتعدد الآلهة مع الاحتجاج الساقط والتحريف الواهي[19].

وإن أناجيل متى ومرقس ولوقا تنسب إلى المسيح القول بتعدد الأرباب مع الاحتجاج الساقط والتحريف الكبير، وما تذكره الأناجيل في أحوال تلاميذ المسيح مما لا ينفك عن الظلم ولو بمحض خذلانهم للمسيح ونكولهم عن مواساته التي طلبها منهم مرارًا بالتأكيد[20].

والقرآن -بآية العهد المتقدمة- يوضّح أن الأناجيل قد خالفت الحقيقة بأحد أمرين: إما بوصف التلاميذ بما مر من صفات الذم.

وإما بإرسال المسيح للتلاميذ بعده ليُعلّموا جميع الأمم ويعظوا العالم أجمع بالإنجيل، وأنه أرسلهم كما أن الله أرسله[21]، وهذه هي الإمامة في الناس.

بل جاء في انجيل متى أن المسيح قال للتلاميذ: "إن كل ما يربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السموات وكل ما يحلونه على الأرض يكون محلولاً في السموات"[22].

وكيف يجتمع في كتاب الوحي أن المسيح يقول لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله بل بما للناس، مع قول المسيح له: أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأعطاه إمامة الحل والربط في الديانة كما تقدم لسائر التلاميذ[23].

ومنها: أن بولس كان ضدًا للكنيسة، وكان يهجم على البيوت، ويجر المؤمنين بالمسيح نساءً ورجالاً إلى السجن، ويقتلهم، ويعاقبهم، ويضطرهم إلى التجديف (الكفر بالمسيح وشتمه)، وكان مجدفًا ومضطهدًا ومفتريًا[24].

وكيف يجتمع هذا مع ما يذكره العهد الجديد في أعمال الرسل والرسائل المنسوبة إلى بولس أن بولس صار رسولاً وإمامًا، بل كان النفوذ لإمامته في النصراني، فقد قالت رسائله ما شاءت من إبطال شريعة التوراة وعيبها وذمها[25].

فالقرآن يوضّح أن التلاميذ وبولس إن كانوا رسلاً وأنبياء وأئمة، فوصفهم بما يؤدي إلى كونهم ظالمين كاذب، وإن كانوا كما وُصفوا به فوصفهم بالرسالة والنبوة والإمامة كاذب، وهذا العهد الجديد قد جمع بين المتنافيين فإن الظالم لا يكون إمامًا.

(انتهى المقال)

الهوامش

* كتاب الهدى إلى دين المصطفى،، تأليف الشيخ محمد جواد البلاغي، ردّ فيه على بعض النصارى ما افتراه من أباطيل، وفنّد مفترياتهم، طبع أكثر من مرة في مجلدين.

2 راجع: كتاب الرحلة المدرسية، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1414هـ/1993م. الجزء الأول في صحيفة 69، وسيأتي الإشارة إلى ذلك في هذه المقالة، فانتظر.

3 البقرة: الآية124.

4 راجع الرحلة المدرسية: 1/14.

5 راجع: المصدر السابق 1/21.

6 راجع: كتاب الرحلة المدرسية الجزء الأول، ج1 ص 65.

7 راجع: كتاب الرحلة المدرسية الجزء الأول ص 67.

8 راجع: المصدر السابق: 1/72-73.

9 راجع: المصدر السابق، ص 41-42.

10 راجع: المصدر السابق، ص 29و30 و33.

11 راجع المصدر السابق: 1/84 -85.

12 راجع: المصدر السابق: ج2 ص246.

13 راجع المصدر السابق: 1/73.

14 راجع: المصدر السابق: 1/43-44.

15 راجع: المصدر السابق: 1/68.

16 راجع: المصدر السابق نفسه.

17 سورة الأنعام:103. راجع: المصدر السابق، ص77.

18 الذاريات: 25-29، راجع: كتاب الرحلة المدرسية الجزء الأول ص صحيفة 55-56؛ 59 وص60 و 69.

19 راجع: المصدر السابق ص 89.

20 راجع: المصدر السابق ص 159 - 160.

21 راجع: المصدر السابق ص 160.

22 متى 18: 18.

23 أنظر: متى 16: 16 - 24.

24 راجع: كتاب الرحلة المدرسية ج1 ص208 و209.

25 راجع: المصدر السابق ص 118 و119.

الر سول (ص) وأسباب النـزول

الشيخ حسن حيدر

الرسول (صلى الله عليه وآله) وأسباب النزول

الشيخ حسن حيدر

تمهيد

تُمثّل أسباب النزول نصوصًا نقليّة تحكي نزول الوحي، وقد شغلت الباحثين -بما هي سياقات ثقافيّة وتاريخيّة واجتماعيّة تحيط بالنصّ القرآنيّ- على مرّ العصور، وذلك في إطار تعاملهم مع نصّ المصحف ومحاولة بيان مسائله وتدبّر قضاياه، فكان لها حضور بارز امتدّ بامتداد علم التفسير، حتّى اشتهر أنّه لا غنى للمفسّر عنها، وعدّوا العلم بها من شروط التفسير وفهم القرآن[1].

وقد بدأ حديث أسباب النزول في مرحلة مبكرة من مراحل التاريخ الإسلاميّ، فقد كان ذلك مقارنًا للدعوة والرسالة، أي مقارنًا لأولى نفحات الوحي، ثمّ واصل رحلةً امتدّت عصورًا، وقد اتّخذ خلالها أشكالاً متعدّدة، شكّلت جذور هذه المسألة.

من هنا لا يمكن -من الناحية المنهجيّة- عزل بحث أسباب النزول عن إطاره التاريخيّ، فالحصول على إجابات وحقائق جديرة بالثقة في نطاق أسباب النزول، يتوقّف على وضع البحث في إطاره التاريخيّ الذي امتدّ قرونًا من الزمن.

وفي هذه المقالة نتابع أولى الاهتمامات بهذا الباب -من خلال دراسة حركة الرسول (صلى الله عليه وآله)-، ونتأمّل في طبيعة هذا الاهتمام، على أن يكون ذلك مناسبة لتقصّي التطوّرات التي رست عليها أسباب النزول خلال مراحل لاحقة -إذا وفّقنا الله تعالى-، معتقدين بأنّ هذه الوقفة تجعل الصورة أسلم وأوضح، وتُلقي بظلالها على البحث بمختلف مستوياته، وتحدّد كثيرًا من معالمه.

عقبات البحث التاريخي

لا يخفى على القارئ العقبات التي تنتظر بحثًا تاريخيًّا لم تمسّه يد التحقيق ولم يُطرق بشكل منهجيّ ومستقلّ من قبل، وقد مضى عليه أكثر من عشرة قرون من عمر الزمن، ممّا جعل بعضَ دارسي أسباب النزول المعاصرين يرى عدم تيسّر الكلام في تاريخ أسباب النزول؛ "إذ لا توجد -على حدّ علمنا- ولو دراسة واحدة اعتنت بتاريخ

أسباب النزول، سواء عند القدامى أو عند المحدثين (...)، وفضلاً عن ذلك نفتقد اليوم الوثائقَ القديمة التي يمكن أن تدلّ على تاريخ أسباب النزول والهيئة التي كان عليها، خاصّة في الأطوار الأولى من تشكّله"[1].

ونحن وإن عشنا صعوبات البحث التاريخيّ وعوائقه، ولكنّنا لا نسلّم بأنّ البحث فيه يمثّل مهمّة مستحيلة بناءً على افتقاد الوثائق؛ وذلك لوجود مادّة قابلة للتحليل بين أيدينا، وتتمثّل بنصوص النبيّ (صلى الله عليه وآله) والصحابة، وهذه النصوص، بعد وضعها في ظرفها التاريخيّ -الاجتماعيّ- الثقافي المناسب، تمثّل نماذجَ تستحقّ الدراسة والتحليل، لذا سنستنطقها على أمل أن نعرض على القارئ شريطًا تاريخيًّا لهذه المسألة، ليعيش أسبابَ النزول في زمان النبيّ (صلى الله عليه وآله).

عمليّة الرصد

تشكّل حركة النبيّ (صلى الله عليه وآله) علامةً مهمّة تشير إلى وضعيّة وحقيقة أسباب النزول، إلا أنّ الإشكال يقع في وجود حركة ترتبط بالأسباب يمكن للباحث أن يرصدها في ذلك العصر، حيث يرى عددٌ من الباحثين، أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) والصحابة لم يعتنوا بأسباب النزول؛ إذ: "من المسلّم به أنّ الرسول وصحابته لم يكن لهم اهتمام بأسباب نزول القرآن (...)، ولم تكن هناك حاجة إلى الخوض في أسباب النزول؛ بما أنّ الدواعي إليه لم توجد بعد"[2]، و"الاهتمامات الأولى بعلم أسباب النزول ظهرت مع مشاغل التابعين، فقد أخذ هؤلاء بعض المعطيات التاريخيّة المتعلّقة بعدد من الآيات من أفواه الصحابة"[3]، ويجزم البعض بأنّه "لم يرد عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنّه لفت الأنظار إلى عِلم أسباب النزول ولا طلبه، ولم توجد آيات وأحاديث بهذا الخصوص"[4]، ويعتقد الكثيرون أنّه ربما ظهرت إرهاصات أولى لبحث أسباب النزول إلا أنّ الأهمّ أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله) والصحابة لم يقوموا بتظهير الصورة بأيّ شكل من الأشكال، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الصحابة كانوا معاصرين لنزول القرآن فاكتفوا بما شاهدوه من أسباب النزول، واقعًا تحت نظرهم، من غير أن يولوا ذلك الأمر اهتمامًا خاصًّا يمكن أن يشكّل معطىً للبحث في باب أسباب النزول[5].

لكنّ هذه الآراء لا تصمد طويلاً إذا ما تقصّينا جنبات التاريخ الذي رفدنا بمجموعة من الوثائق التي تدحض تلك المزاعم، فقد سجّل حقائق مغايرة تمامًا لما ذكروه في هذا المجال، ويمكننا أن ندرس ذلك من خلال بيان دور النبيّ(صلى الله عليه وآله) في بثّ روح الحماس لتتبّع أسباب النزول من جهة، واهتمام الصحابة بها من جهة أخرى.

ولا بدّ أن نلتفت إلى أنّ الحديث في هذه المرحلة -أي في زمان وعصر الوحي-، ليس حديثًا في روايات أسباب النزول، بقدر ما هو حديث عن ارتباط نزول الآيات بالأسباب، وبيان كيفيّة تعاطي الرسول (صلى الله عليه وآله) والمجتمع من حوله معها، وما التعرّض للروايات في هذه المرحلة إلا ضمن الدائرة التي تصبّ في هذا الهدف.

أوّلاً: حركة النبيّ (صلى الله عليه وآله)

إذا رجعنا إلى سيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) والنصوص التي وصلتنا عنه، فإنّنا نجده (صلى الله عليه وآله) يعمد إلى لفت الأنظار إلى أسباب النزول بأساليب متعدّدة وفي مختلف المناسبات:

1- وقفات الرسول (صلى الله عليه وآله) عند أسباب النزول

أولى بوادر اهتمام الرسول (صلى الله عليه وآله) تتبدّى في الوقفات المتكرّرة له عند أسباب النزول، فقد كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يبيّنها مرارًا لأصحابه وسائليه، وقد تمّ ذلك في أكثر من مناسبة، وبصيغٍ متفاوتة:

منها ما ورد في قضيّة عويمر بن ساعدة العجلانيّ، في سبب نزول الآية:**{والذين يَرْمونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلا أَنْفُسهُم...}**[6]:

حيث طلب الرسول (صلى الله عليه وآله) من عويمر أن يأتي بأهله ليبيّن أحد أسباب النزول قائلاً: "ائتني بأهلك فقد أنزل الله فيكما قرآنًا"[7].

وكما في مسألة الظهار، حيث شكَت امرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) زوجها الذي ظاهَرَها[8]:

فطلب منها الرسول (صلى الله عليه وآله) أن تأتي بزوجها فقال له: "قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآنًا وقرأ: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ..**(إلى قوله)..**وإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}**[9]"[10].

كذلك في سبب نزول الآية: **{فَإِذا أَمِنْتُم فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إلى الحَجّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدي...}**[11]، بعد أن سأله سُراقة بن مالك بن جَعْثم المُدلجيّ: يا رسول الله، هذا الذي أمرتنا به لعامنا هذا أم للأبد؟

فقال (صلى الله عليه وآله): "بل للأبد إلى يوم القيامة -وشبّك بين أصابعه- وأنزل الله في ذلك قرآنًا" وقرأ الآية[12].

وقريب منه الذي ورد عنه (صلى الله عليه وآله) في الآية: **{وَيَسْتَفْتونَكَ قُلِ الله يُفْتيكُم فِي الكَلالَة}**[13]، بصيغة: "إنّ الله أنزل وبيّن ما لأخواتك وهو الثلثين"[14].

وكذا في قصّة عبد الله بن أبي أمية، قبل أن يَقبل الرسول (صلى الله عليه وآله) إسلامه، حيث قال (صلى الله عليه وآله) لأخته أم سلمة التي جاءت متوسّطةً له عنده (صلى الله عليه وآله): "هو الذي قال لي:**{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا}**..إلى قوله:.. **{وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتابًا نَقْرَؤُهُ}**[15]"[16].

وذكر السيوطيّ في سبب الآية الكريمة **{وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...}**[17]، أنّه بعد أن ذكر الرسول (صلى الله عليه وآله) لصحابته مقام شهداء أحد في الجنّة، وقولهم: "يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد، قال الرسول (صلى الله عليه وآله): "فأنزل الله هذه الآيات: **{وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...}**"[18].

هذا وقد نُقلت لنا روايات متعدّدة عن أهل البيت (عليه السلام) يركّز فيها الرسول(صلى الله عليه وآله) على أسباب نزول الآيات وفي مناسبات أكثر أهميّة، وقد أغفل ذكرها أهل العامّة؛ من ذلك خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله) يوم الغدير، والتي أوردها الفتّال النيسابوريّ في كتابه "روضة الواعظين"، وذكر فيها ثماني آيات مشفوعةً بأسباب نزولها[19]...

وما يمكن أن نخلص إليه من خلال هذه الأحداث التي ينقلها التاريخ، أنّ وقفاتٍ متكرّرة قد عمد إليها النبيّ (صلى الله عليه وآله) عند أسباب النزول، معبّرًا عن ذلك بمختلف الصيغ، ممّا يجعلنا نعتقد بأنّ حسّ الارتباط بأسباب النزول، قد أوقده الرسول (صلى الله عليه وآله) في الصحابة منذ السنين الأولى من عمر الدعوة الإسلاميّة ومع النفحات الأولى لنزول الآيات.

2- الاهتمام بأعلام النزول

أبدى النبيّ (صلى الله عليه وآله) نوعًا آخر من تركيز ارتباط الآيات القرآنيّة بأسباب النزول، وذلك حينما كان يُبرز اهتمامًا خاصًّا بأعلام النزول، إذا ما نزل فيهم القرآن مدحًا[20]، فيبيّن سبب النزول مثنيًا على صاحبه.

منها ما اشتُهر في مختلف كتب التفسير وأسباب النزول، في قوله تعالى: **{..إِنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِين}**[21]، حيث كانت عادة القوم الاستنجاء بثلاثة أحجار، وقد استنجى رجل من الأنصار بالماء، لعدم استغنائه بالحجارة، فبعث إليه الرسول (صلى الله عليه وآله)، وقال له: "هنيئًا لك، فإنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل فيك آية: **{إِنَّ الله يُحِبُّ التَوَّابِين ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِين}**، فكنت أوّل من صنع ذا..."[22].

وورد أنّ رجلاً من الأنصار حضر عند النبيّ (صلى الله عليه وآله) معبّرًا عن مدى حبّه له بحيث لا يطيق مفارقته، وسأله عن حال الجنّة، وأنّه هل سيُحرم من رؤيته أو أنّ ثمّة سبيل لرؤية الرسول (صلى الله عليه وآله) مع أنّ مقامه (صلى الله عليه وآله) يكون في أعلى عليّين؟

فنزلت على أثر ذلك الآية:**{وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَبِيِّينَ وَالصدِّيقِينَ وَالشُهَداء وَالصَالِحِين وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا}**[23]، فدعا النبيُّ (صلى الله عليه وآله) الرجلَ فقرأها عليه، وبشّره بذلك[24].

كما ورد بعد مبيت عليّ (عليه السلام) في فراش الرسول (صلى الله عليه وآله)، ثمّ لحوقه مع النساء به(صلى الله عليه وآله)في هجرته إلى المدينة، فإنّه لمّا وصل علي(عليه السلام) بهم إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال له(صلى الله عليه وآله): "إنّ الله سبحانه قد أنزل فيك وفي أصحابك قرآنًا" وتلا عليه الآيات الأواخر من سورة آل عمران: **{الذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعودًا}**..إلى قوله.. **{إِنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَاد}**[25]"[26].

وورد في قصّة إيثار أمير المؤمنين (عليه السلام) المقداد على نفسه حيث أعطاه الدينار الوحيد الذي لديه، أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) بحث عن عليّ (عليه السلام) فلمّا وجده قال له: "أما أنّ جبريل قد أنبأني بذلك، وقد أنزل الله فيك كتابًا: **{وَيُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَة...}**[27]"[28].

ومثل ذلك ما ورد في آية التطهير عن عليّ (عليه السلام) قال: "دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيت أمّ سلمة، وقد نزلت عليه هذه الآية: **{إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرجْسَ أَهْلَ البَيْت وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيرًا}**[29]، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا عليّ، هذه الآية نزلت فيك وفي سبطيّ والأئمّة من ولدك"[30]...

فنحن نجد حرصًا عند النبيّ (صلى الله عليه وآله) على الاهتمام بأعلام النزول، وهذا يظهر جليًّا من خلال إبرازهم عبر التهنئة أو البحث عنهم ثمّ إيراد سبب نزول الآيات في جوٍّ يُشيع حالةً من الإلتفات لدى المجتمع، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على سعي الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى ربط الآيات القرآنيّة بالأعلام الذين نزلت فيهم، ممّا يدفع الناس إلى إقامة ارتباط أوسع في مجال أسباب وأعلام نزول الآيات.

على أنّ الذي عاب هذا الباب في الفترات اللاحقة هو اختفاء عدد كبير من الأسباب المرتبطة بالأعلام، ففي الكتب المشهورة المصنّفة في أسباب النزول، نفتقد كثيرًا من أسباب نزول مجموعة كبيرة من الآيات نعلم يقينًا بأنّها مرتبطة بأعلام كما يظهر من سياقها بشكل واضح، ممّا يضطرّ الباحث إلى التنقيب عنها في مختلف المصادر، فيما الذي اشتهر منها لدى مختلف العلماء نادر، وهو ما يرسم أكثر من تساؤل!

يتبع =

([1]) يندر أن يخلو بحث مرتبط بأسباب النزول، سواء في علوم القرآن أو مقدمات التفسير، من هذا المعنى، يمكن على سبيل المثال ملاحظة: السيد محمّد رضا الجلالي: مجلّة تراثنا، ج4، ص: 20، وهبة بن مصطفى الزحيليّ: التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، 1418: ج1، ص:18-19، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج1، ص10، الواحدي: أسباب النزول، ص: 10، بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشيّ: البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربيّة، ط1: ج1، ص22.

تتمة مقال = الرسول (صلى الله عليه وآله) وأسباب النزول

3- تعليق الجواب على نزول الأسباب

الأسلوب الآخر الذي اعتمده رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مجال ربط المجتمع الإسلاميّ بأسباب النزول، هو ما كان يعمد إليه أحيانًا من تعليق جواب بعض المشكلات على نزول القرآن[32]، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من أثر إعلاميّ نفسيّ على الناس، حيث يجعلهم -وبسبب حالة الانتظار التي يتركهم النبيّ (صلى الله عليه وآله) فيها- أشدَّ ترسّخًا واعتقادًا بهذا الباب -باب العلم بأسباب النزول-، ومن نماذج ذلك ما رُوي في شكوى زوجة أبي قيس بن الأسلت على ابنه محصن، الذي أراد أن يرث نكاحها كونها زوجة أبيه، بعد أن منع عنها إرثها من زوجها، فقد أجابها الرسول (صلى الله عليه وآله): "ارجعي لعلّ الله ينزل فيك شيئًا"، ثمّ أخبرهم لاحقًا بنزول الآية **{وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤكُم مِنَ النِسَاء...}**[31].

فنحن نعتقد أنّ لهذا الأسلوب نوعًا من التأثير النفسيّ الذي يجعل المجتمع على تماسٍ مع أسباب نزول الآيات، ويؤدّي إلى أن يعيش الناس في حالة ترقّبٍ لنزول القرآن وفق أسباب، وهو ما سنلاحظه في فقرات لاحقة.

4- بيان وتوضيح الأسباب

اهتمّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) بجانبٍ آخر من جوانب أسباب النزول، وذلك حينما تولّى بنفسه أمر بيان وتوضيح بعض الأسباب إذا ما كان ثمّة لبس أو إبهام في حقيقتها، كما في الآية **{لا تَجْعَلوا دُعَاءَ الرسُول بَيْنَكُم كَدُعَاءِ بَعضكُم بَعْضا}**.. إلى قوله تعالى.. **{أَنْ تُصِيبهُم فِتْنَة أو يُصِيبَهُم عَذابٌ أَلِيم}**[32]، حيث ورد أنّ ابنته فاطمة الزهراء ÷ عندما سمعت الآية، لم تعُد تنادي الرسول (صلى الله عليه وآله): يا أباه، وصارت تناديه: يا رسول الله، فقال لها الرسول (صلى الله عليه وآله): "يا بنيّة لم تنزل فيك ولا في أهلك من قبل، وإنّما نزلت في أهل الجفاء..."[33].

ففي مثل هذه الموارد لا يرتبط الأمر بمجرّد بيان الحوادث، بقدر ما يرتبط ببيان مفاهيم لها عميق الأثر على تمييز الجماعات المحيطة بالنبيّ (صلى الله عليه وآله)، وسيكون لذلك بلا شكّ أثر كبير على مستقبل مسيرة الإسلام وأهله.

النتيجة

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قد قام في هذه المرحلة بتسجيل بعض الأحداث التاريخيّة وفقًا لأسباب النزول، ثم بيّن بعض الحقائق فيها، وقد سعى إلى إيقاظ حسّ الأصحاب وتوجيههم في مجال حسن الالتفات إليها، لارتباطها بالآيات القرآنيّة، مستعينًا بأساليب عديدة تخدم هذا الهدف، وتنمّي الشعور بأهميّة هذا الاطّلاع، ممّا يكشف عن المنزلة الرفيعة التي تحتلها أسباب النزول لدى رسول السماء(صلى الله عليه وآله).

ثانيًا: اهتمام الصحابة في عصر الرسول(صلى الله عليه وآله)

هكذا كانت حركة النبيّ(صلى الله عليه وآله)، فكيف تلقّف الصحابة أسباب النزول؟ وكيف كان أثر حركته على المجتمع؟

إذا كان من المتوقّع أن يظهر بوضوح اهتمامُ الأصحاب بأمر الأسباب، سواء لطبيعة هذا الموضوع وجاذبيّته، أم بسبب توجيهات النبيّ (صلى الله عليه وآله)، فإنّ الإشكاليّة التي يطرحها البعض تتمثّل في كيفيّة رصد حركتهم واهتمامهم، بعد أن اتسمّت حركتهم تجاه أسباب النزول بالركود والخفاء، من غير أن تتّسم بأيّ نَفَسٍ إعلاميٍّ أو صورة تظهر إلى العلن، ذلك أنّنا نتحدّث عن مجتمع على تماسٍ مباشر بأسباب النزول؛ فقد كانوا "على جانب كبير وفقهٍ واسع لهذا الباب [أسباب النزول]، كيف لا وهم الذين أكرمهم الله بملازمة نبيّه، وكان الوحي يتنزّل بينهم روّاحًا غدّاءً بآيات الله"[34]!

لكنّ الحق أنّ كثيرًا من أسباب النزول كانت تقع في غياب الصحابة، وهذا أمر طبيعيّ، فمن المعلوم أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كانت له حياته الخاصّة ولم يكن المجتمع بكامله يرافقه ويمشي خلفه وبين يديه أينما ولّى وجهه! وخاصّة في الحالات التي كان يأتيه فيها وحي السماء[35].

من هذا المنطلق كان بالإمكان رصد حالة الصحابة مع أسباب النزول، وتَبَيُّن جهاتٍ تُبرِز اهتمامهم بها.

نعم، ما نسلّم به أنّ نزول كثير من آيات القرآن بين ظهرانيهم، ومعاصرتهم لحياة الرسول (صلى الله عليه وآله)، جعل ما ينقلوه من أسباب النزول قليلاً بالقياس إلى الأجيال اللاحقة التي كانت متعطّشةً إلى الأسباب وسائلةً عنها.

هذا، فضلاً عن فقدان الكثير من الوثائق، التي قد ترتبط بأسباب النزول، والعائدة إلى ذلك الزمان.

والراصد لحركة الصحابة في هذا المجال يجد أنّ أبرز علامات وأمارات هذا الاهتمام قد تجلّى من خلال ترقّبهم لها من جهة، والترويج لها بين أطياف المجتمع من جهة أخرى، ممّا يعطي أكثر من إشارة في هذا المجال.

1- ترقّب نزول القرآن وفقًا لأسباب

يلاحظ المتابِع للفترة التاريخيّة المعاصرة للوحي، أنّ الصحابة كانوا يعيشون حالة الترقّب لنزول الآيات القرآنيّة وفقًا لأسباب، ممّا يشير إلى أنّ الناس قد اعتادوا على أسباب النزول وباتوا يعيشون في أجوائها بشكل راسخ، بحيث صاروا يتوقّعون نزول آيات عند أحداث معيّنة.

من نماذج ذلك ما ورد في قضيّة الرجل الأنصاريّ واستنجائه بالماء، والحال التي كان عليها؛ فإنّه بمجرّد استدعاء النبيّ (صلى الله عليه وآله) له "جاء الرجل وهو خائف أن يكون قد نزل فيه أمر يسوء في استنجائه بالماء"[36]، والمقصود بكلّ تأكيد أنّه جاء مترقّبًا لما نزل فيه من القرآن عند حصول هذه الحادثة، وهذا ما يُسمّى بأسباب النزول.

وكذلك ما نقله مقاتل بن حيّان، من سؤال أسماء بنت عميس وترقّبها لنزول القرآن في النساء، عندما رجعت من الحبشة، مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فقد دخلت على نساء رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقالت: "هل نزل فينا شيء من القرآن؟، قلن: لا، فأتت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالت: يا رسول الله! إنّ النساء لفي خيبة وخسار، فقال (صلى الله عليه وآله): وممّ ذلك؟!، قالت: لأنّهنّ لا يُذكرن بخير، كما يُذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية **{إنّ المُسْلِمِين والمُسْلِمَات، وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات}**..إلى قوله تعالى.. **{أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}**[37]"[38].

بل تجاوزت حالةُ ترقّبِ نزول الآيات وفق أسباب معيّنة، الصحابةَ المخصوصين، لتعمَّ المنافقين، وهذه الحقيقة يؤيّدها القرآن الكريم في بعض آياته، وذلك من خلال إشارته إلى ترقّب المنافقين نزول القرآن في شأنهم، يقول تعالى **{يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون}**[39].

ويعلّق صاحب الميزان على الآية بالقول: "كان المنافقون يشاهدون أن جلّ ما يستسرّون به من شؤون النفاق ويناجي به بعضهم بعضًا، من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللمز والاستهزاء أو جميع ذلك، لا يخفى على الرسول، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي (صلى الله عليه وآله) أنه من وحي الله (...)، فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما أضمروه من الكفر و همّوا به من تقليب الأمور على النبي(صلى الله عليه وآله)[40].

كلّ هذا يؤكّد أنّ مسألة أسباب النزول قد اتّضحت أولى معالمها، بحيث كان الناس يعيشون حالة الترقّب والانتظار تلك، ولولا اعتياد الصحابة على حدوث هذا الأمر واهتمامهم به لما كان لتلك الحالة أن تَسْكنَ وتَسْتوطنَ نفوسَهم.

2- ترويج الأسباب

إلى ذلك فقد كان لبعض الصحابة دور في ترويج الأسباب في المجتمع، فها هو الأشعث بن قيس يبرز ليقول في الآية **{إنَّ الذِينَ يَشْتَرونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً...}**[41]: "فيّ نزلت، خاصمت إلى رسول الله فقضى عليّ باليمين"[42]، وكأنّه يقوم بحملة ترويجٍ لسبب نزول هذه الآية، على أنّ اللافت هو أنّ هذا السبب لا يحمل في طيّاته أيًّا من أمارات المدح! وما كان هذا الأمر ليحصل لولا ارتباط المجتمع بأسباب النزول بشكل أو بآخر.

كذلك ينقل مجاهد عن كعب بن عجرة أنه قال: "لَفِيّ نزلت وإيّاي عنى بها **{فَمَن كانَ مِنكُم مَريضًا أَو به أَذى مِن رَأسِه فَفِدية مِن صِيام أو صَدَقة أو نُسك...}**[43]، قال: قال النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم وهو بالحديبية، وهو عند الشجرة، وأنا محرم: "أيؤذيك هوامك؟" قلت: نعم، أو كلمةً لا أحفظها عنى بها ذاك، فأنزل الله جلّ وعزّ: **{فَمَن كان منكم مَريضًا أَو بِه أَذى مِن رَأسِه فَفِدية مِن صِيام أَو صَدقَة أو نُسك...}**"[44].

كما يذكر الزركشيّ في البرهان، في ختام بحث أسباب النزول وتحت عنوان فائدة، يقول: "روى البخاري في كتاب "الأدب المفرد في بر الوالدين" عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه، قال:

نزلت فيّ أربع آيات من كتاب الله عز وجل:

كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمدًا صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأنزل الله تعالى: **{وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا}**[45].

والثانية: أني كنت أخذت سيفًا فأعجبني، فقلت: يا رسول الله هب لي هذا فنزلت عن الأنفال.

والثالثة: أني كنت مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فقلت: يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي، أفأوصي بالنصف؟ فقال: لا، فقلت: الثلث، فسكت، فكان الثلث بعد جائزًا.

والرابعة: أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار، فضرب رجل منهم أنفي بلحى جمل، فأتيت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر"[46].

لقد كان مدعاةً للافتخار أن يرتبط شخص من الصحابة بسبب النزول، لذا كانوا يعمدون في مثل هذه الحال إلى ترويجها، وهذا بغضّ النظر عن كون الآية المرتبطة بهذا السبب قد نزلت مدحًا أو غيره، ممّا يكشف عن مكانة أسباب النزول في تلك الفترة والمرحلة من تاريخ الدعوة الإسلاميّة.

خلاصة واستنتاج

إن البذور الأولى لبحث أسباب النزول قد غرسها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بنفسه بين صحابته، وهذا ما تجلّى واضحًا في مواقفه وطيّات كلماته (صلى الله عليه وآله)، وبذلك يكون (صلى الله عليه وآله) قد وضع اللبنة الأولى في صرح هذا الباب، وذلك من جهة حثّ المسلمين على الاضطّلاع بها.

وهذا لا يعني أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) قد أعطى صورة هذا الموضوع كاملة، كما أنّه لم يجعله بابًا مستقلاً من العلم تكون له أسسه الخاصّة والواضحة، وإنّما قام بدور ترسيخ هذا الباب في النفوس وربط القرآن بأسباب نزوله.

لا شكّ أنّ هذا الاهتمام من الرسول (صلى الله عليه وآله) كان له هدفٌ يرتبط بمستقبل الأمّة الإسلاميّة وارتباط الأجيال اللاحقة بالقرآن وأسباب نزوله. وما يستوقفنا هو الإهمال الذي طرأ على هذا الباب في مراحل لاحقة، ممّا يرسم أكثر من علامة استفهام، وهو الأمر الذي لا بدّ من دراسته دراسة مستوفية، ولعلّنا نوفّق في مقالات أخرى إلى استبيان حقيقة الأمر.

هذا بالنسبة لدور النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وأمّا تفاعل الصحابة مع واقع أسباب النزول فقد بدا جليًّا من خلال ردّة فعلهم تجاه هذا الأمر، ترقّبًا وترويجًا، فكانت نتيجة حركة النبيّ (صلى الله عليه وآله) في إطار الأسباب أنّها كانت تعيش في عمق وجدانهم.

على أنّ المُلاحظ هو قلّة الأسباب المنقولة عن الصحابة، لا سيّما بالقياس إلى الفترات اللاحقة من تاريخ الإسلام، ويعود ذلك إلى عدّة أمور، منها أنّه لم يكن ثمّة أسباب شائكة تُثير اللغط في المجتمع، أو حالات ادّعاء مخالفة للواقع، والتي تخلق في المجتمع جوًّا عامًّا من السؤال والنقل؛ وذلك لأنّ الرسول(صلى الله عليه وآله)ما زال بينهم، وهو المرجع في أمورهم، وسيرته واضحة للعيان بخلاف ما سنجده لدى الأجيال اللاحقة[47].. هذا فضلاً عن ضياع عدد كبير من الروايات المرتبطة بتلك الفترة.

ومن الملاحظ أيضًا أنّه لم يَرِدْ، في جميع الوثائق التي وصلتنا، اصطلاحُ "أسباب النزول"، سواء على لسانه(صلى الله عليه وآله) أم على لسان أصحابه.

(انتهى المقال)

([32]) السيوطي: مصدر سابق،ص:73، وهذا لا ينفي وجود أمر آخر وراء ربط الناس بأسباب النزول، عند تعليق الجواب على سبب النزول.

الهوامش

1. بسام الجمل: أسباب النزول، المركز الثقافيّ العربيّ: ص: 49.
2. المصدر نفسه، ص: 61.
3. المصدر نفسه، ص: 62.
4. عبد الرحيم أبو علبة: أسباب نزول القرآن: دراسة وتحليل، الوكالة العربيّة للتوزيع، ص:90.

5 فكرة أنّ الصحابة اكتفوا بما كانوا يشاهدونه، قد شغلت معظم الباحثين، حيث أكّدوا هذه الفكرة وأيّدوها، من غير نقاش؛ بناءً على أنّ: "الجيل الأوّل من المسلمين عاين نزول الوحي وتعرّف إلى الظروف الحافّة به (...)، ومن ثمّ لم تكن هناك حاجة إلى الخوض في أسباب النزول بما أنّ الدواعي إليه لم توجد بعد" (بسام الجمل: مصدر سابق، ص:61)، وتكون نتيجة ذلك أنّ: "الإلمام بهذه الأسباب لم يكن مطلوباً عند جيل الصحابة بما أنّهم عاينوا التنزيل وكانوا شاهدين مباشرين على تلقّي الرسول للوحي"(بسام الجمل: مصدر سابق: 57، وراجع: الزركشيّ: مصدر سابق، ج1، ص22). كلّ ذلك من غير أن يلتفتوا إلى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان يهيِّئ الأمّة لما بعد رحلته، ويؤمّن الغذاء للأجيال اللاحقة، فضلاً عن أنّنا نعتقد ـ وفقاً للمنظومة الشيعيّة ـ بأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قد شجّع على التدوين، وأوّل من لبّى هو أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام).

6 النور، الآية 6.

7 أبو الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي: تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، ط3، 1404: ج 2، ص: 98، وذكرها: جلال الدين السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، عالم الكتب، ط1، 1422:ص 182 مع اختلاف بسيط، وأوردها: الشيخ محمّد بن يعقوب الكليني: الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، ط3: ج6، ص163، ح4 روايةً عن الصادق(عليه السلام) حين سُئل عن الملاعنة.

8 تذكر بعض كتب أسباب النزول أنّ اسم المرأة هو خولة، وزوجها هو أوس بن الصامت (كما في تفسير القمّي: مصدر سابق، في مورد آخر: ج 2/ ص:353، الواحدي: مصدر سابق: ص231)، إلا أنّ هذه الكتب التي صرّحت باسم الرجل والمرأة لم تذكر أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) هو الذي ذكر أنّ الله قد أنزل فيهما قرآناً، وإنّما كان ذلك من تعبير ناقل السبب.

9 المجادلة، الآية 1.

10 تفسير القمي: مصدر سابق، ج 2، ص: 354.

11 البقرة الآية 196.

12 الشيخ محمّد بن الحسن الطوسيّ: تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلاميّة، ط4: ج5 ص25 ح74.

13 النساء، الآية 176.

14 السيوطي: مصدر سابق:ص96، رواه أبو داود في سننه (سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، ط1، 1410، ح: 2887)، فتح الباري (ابن حجر العسقلانيّ: فتح الباريّ، دار المعرفة للطباعة): 8/268، الواحدي: مصدر سابق: ص136.

15 الإسراء الآية90.

16 تفسير القمي: مصدر سابق: ج 2، ص: 27.

17 آل عمران الآية 169.

18 السيوطي: مصدر سابق:ص66.

19 محمّد بن الفتّال النيسابوري: روضة الواعظين، منشورات الرضيّ: ص804، ونقله عنه السيّد هاشم البحرانيّ: البرهان في تفسير القرآن، مؤسّسة البعثة، 1415: ج2، ص227 - 239. وأورد محمّد بن إبراهيم النعماني، في كتابه الغيبة، مكتبة الصدوق: ص39، ح1: حديثاً طويلاً عن مجيء وفد من اليمن إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقد نقل فيه عن الرسول(صلى الله عليه وآله) بياناً لسبب نزول خمس آيات: (آل عمران: 103 و 112/ الزمر: 56/ الفرقان27/ إبراهيم37)، إلى غير ذلك ممّا تناقلته الكتب التفسيريّة والمجامع الحديثيّة...

20 وأمّا إذا نزل القرآن ذمّاً، فإنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان يتحاشى ذكر صاحبه وفضحه، فقد كانت "سيرة النبي(صلى الله عليه وآله) مع المنافقين تأبى ذلك، فإنّ دأبه تأليف القلوب، والإسرار بما يعلمه من نفاقهم، وهذا واضح لمن له أدنى اطّلاع على سيرة النبيّ(صلى الله عليه وآله)"(السيّد أبو القاسم الخوئيّ: البيان في تفسير القرآن، مؤسّسة إحياء آثار الإمام الخوئيّ قدس سرّه: ص225). اللهمّ إلا من كان يتجاهر بعداء النبيّ(صلى الله عليه وآله) ويؤذيه على رؤوس الأشهاد، كما في عمّه أبي لهب، بل تولّى نفس القرآن أحياناً فضحهم بالاسم.

21 البقرة الآية 222.

22 محمّد بن مسعود العيّاشي: تفسير العيّاشي، المكتبة العلميّة الإسلاميّة - طهران: ج1 ص: 109 ح: 328.

23 النساء، الآية69.

24 الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي: الأمالي، مؤسّسة البعثة، ط1: ج2 ص233، السيوطي: مصدر سابق: ص83، الواحدي: مصدر سابق: ص:120-121.

25 آل عمران: 191- 194.

26 محمّد بن الحسن الشيباني: نهج البيان عن كشف معاني القرآن: ج1، ص79.

27 الحشر الآية 9.

28 السيّد شرف الدين علي الحسينيّ الاسترآبادي النجفي: تأويل الآيات في فضائل العترة الطاهرة، مطبعة أمير، ط1: ج2 ص679 ح5.

29 الأحزاب،33.

30 أبو القاسم عليّ بن محمّد بن علي الخزاز القمّي الرازي: كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، انتشارات بيدار، 1401: ص155.

31 النساء الآية 22.

32 النور الآية 63.

33 عليّ بن محمّد الشافعيّ (ابن المغازليّ): مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): ص364، ح411.

34 خالد خليفة السعد: علم أسباب النزول وأهميّته في تفسير القرآن، المقدّمة ص:4، الزركشي: مصدر سابق: ج: 1ص: 22.

35 هذا ونستثني الإمام عليّ(عليه السلام) الذي كان لا يخلو أمره إمّا من مرافقة الرسول(صلى الله عليه وآله)؛ ربيباً ثمّ صاحباً ثمّ صهراً، وإمّا من خلال الاستماع إليه فينهل من معرفته كما رُوي عنه: "ما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلا أقرأنيها، وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي، وعلمني تأويلها وتفسيرها..."(الشيخ محمّد بن علي بن محمّد بن علي القمّي (الشيخ الصدوق): كمال الدين وتمام النعمة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، 1405: 1/284، محمّد باقر المجلسيّ: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 89/41، أحمد بن عليّ الطبرسيّ: الاحتجاج، منشورات دار النعمان للطباعة والنشر: 1/223، عبيد الله بن أحمد (الحاكم الحسكانيّ): شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت، مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، ط1: 1/35).

36 تفسير العيّاشي: مصدر سابق: ج:1 ص109 ح328.

37 الأحزاب، الآية 35.

38 الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسيّ: مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، ط1: ج8 ص: 158 - 159.

39 التوبة، الآية 64.

40 السيّد محمّد حسين الطباطبائي اليزديّ: الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، 1417: ج 9، ص: 326، نعم يعتبر العلامة أنّه ربما كان المنافقون لا يعتقدون بأنّ ذلك من الوحي، وإنّما من الوشاية وما شابه، وعلى أيّ حال فقد اعتادوا هذا النوع من البيان، وهو ما يُعرف بأسباب نزول القرآن، حتّى لو لم يعتبروا القرآن وحياً منزلاً!

41 آل عمران، الآية 77.

42 أمالي الشيخ الطوسي: مصدر سابق: ج1 ص368.

43 البقرة، الآية 196.

44 محمّد بن جرير الطبريّ: جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبريّ)، دار المعرفة، 1412: ج 2/136.

45 لقمان، الآية 15.

46 الزركشيّ: مصدر سابق: ص: 33 ـ 34، وذكره السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، ط1: ج2، ص: 512.

47 لا بدّ من وقفة مطوّلة مع الحالة التي عاشتها الأجيال اللاحقة وارتباط ذلك بأسباب النزول، لعلّنا نوفّق إلى إنجاز ذلك في المستقبل القريب.

الإيمان المستودع وسوء الخاتمة

الشيخ محمد صالح الفقيه

الإيمان المستودع

سوء الخاتمة والعديلة عند الموت

الشيخ محمد صالح الفقيه

معنى حسن الخاتمة وسوء الخاتمة

يفهم من جملة من الروايات أن الإنسان قد يكون مؤمنًا ثابتًا على إيمانه، وقد يكون كافرًا ثابتًا على كفره، وقد يتقلّب بين الكفر والإيمان، فلا يستقر على حاله الأول منهما، وهذا إنما يحكم عليه بالسعادة الحقيقية الدائمة أو الشقاوة الدائمة بلحاظ خواتيم أعماله، فمن ختم له قبل موته بعمل السعداء كتب منهم وإن طال عهده قبل ذلك في صفّ الأشقياء، وكذلك العكس فإنه يختم بالشقاوة لمن ختم له بعمل الأشقياء، وإن لبث دهرًا مع الصلحاء.

وإليك بعضًا من تلك الأحاديث:

ورد عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم (عليه السلام) في حديث: إن الله خلق خلقًا للإيمان لا زوال له، وخلق خلقًا للكفر لا زوال له، وخلق خلقًا بين ذلك أعاره الإيمان يُسمّون المعارين، إذا شاء سلبهم... الحديث[1].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام)**:** إن العبد يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا، وقوم يُعارون الإيمان ثمّ يسلبونه، ثم قال: فلان منهم[2].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) **أنه قال**: إن العبد ليعمل عمل أهل الجنة فيما يرى الناس وإنه لمن أهل النار، وإنه ليعمل عمل أهل النار فيما يرى الناس وإنه لمن أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم[3].

وعنه (صلى الله عليه وآله) أيضًا: إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة[4].

وعنه (صلى الله عليه وآله) أيضًا: لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بما يختم له، فإن العامل يعمل زمانًا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئًا[5].

وهذا ما يسمّى باصطلاح أهل العرفان والأخلاق (**سوء العاقبة أو سوء الخاتمة**)، وهو ما يحذرونه ويعدّونه من أعظم ما ينبغي التخوّف منه، ويحثّون على الاجتهاد في أن يكون العبد حين وفاته في أحسن حالات العبودية من التقوى والصلاح، إذ قد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا يزال المؤمن خائفًا من سوء العاقبة لا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له[6].

درجات سوء الخاتمة وكيفية التحول

وبالجملة فإن لسوء الخاتمة مراتب ودرجات، فقد تسوء عاقبة الإنسان إلى درجة أن يختم له بالكفر والجحود، وقد يختم له بالفسق والفجور، وقد يكون ذلك بنقص ما دون ذلك، وقد يكون بنقص عن الكمال الذي يرجوه الكُمّل لأنفسهم، وهذا هو ما يخشاه عباد الله المخلصون والأولياء والمعصومون ويستغفرون منه، ويتوبون مما يؤدي إليه من ترك الأولى، ويتهجدون بالبكاء والتضرّع للوصول إلى المراتب الأعلى من الكمال والتنزه عن النقص.

ويمكن أن نضيف إلى اختلاف سوء العاقبة بالدرجات الاختلاف بالكيفيات، فهو قد يحصل بشكل مفاجئ كما هو ظاهر هذه الروايات، وقد يحصل بشكل تدريجي بطيء لكنه ملحوظ، فقد يفاجئنا مؤمن تقي ورع ظاهرًا بارتكاب جريمة شنيعة أو معصية موبقة لا تتناسب مع أمثاله، وقد يتردّى حاله وسلوكه شيئًا فشيئًا.

وقد برز في المسلمين الأوائل الكثير من هؤلاء، ولا نتحدث هنا عن المنافقين الذين لم يؤمنوا قط، بل عمن كان يعدّ من المؤمنين أو خيارهم، فكم من الصحابة انقلب على عقبيه عند وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) بل قل كم ثبت منهم على الحق، وكذا من خرج على إمام زمانه علي (عليه السلام) ليحاربه، بل ليقود تلك الحرب، فهل استقر شيء من الإيمان في قلوب هؤلاء، أم أنه نُزِع منهم وكان مستودعًا فحسب، وهل عاقبة أسوأ من هذه!

الإيمان المستقرّ والمستودع

وكيف كان فمن أعظم الخطر أن يختم للإنسان بالكفر، بحيث يكون قلبه مستودعًا للإيمان لا مستقرًا، ويكون إيمانه معارًا، وقد استفاضت المرويات في ذلك، حتى أن الشيخ الكليني (قده) أفرد لها بابًا خاصًا في كتاب الكافي تحت عنوان (باب المعارين).

فمن تلك الروايات مضافًا إلى ما تقدم:

ما ورد عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) وقد سئل عن قوله تعالى **{فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}**[7]، قال (عليه السلام): مستقرّ في الرحم ومستودع في الصلب، وقد يكون مستودع الإيمان ثم ينزع منه، ولقد مشى الزبير في ضوء الإيمان ونوره حين قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى مشى بالسيف وهو يقول: لا نبايع إلا عليًا[8].

وعن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال: فمن الإيمان ما يكون ثابتًا مستقرًا في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم، فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت فعند ذلك يقع حدّ البراءة[9].

هل حسن أو سوء الخاتمة أمر طارئ مفاجئ؟

الظاهر من هذه الأحاديث أن المدار في السعادة والشقاوة في الآخرة على حسن العاقبة أو سوئها، لا على مجموع أعمال الإنسان في مجمل عمره.

وهذا ما يطرح إشكالاً وتساؤلاً يتعلّق بالعدل الإلهي ينبغي الإجابة عليه وإزاحة الغموض عنه، وهو أنه كيف يجازى الإنسان بالنعيم المقيم أو بالشقاء الدائم على خصوص ما يختم له به، دون أن يلحظ ما واظب عليه زمانًا من عمره من أعمال اجتمعت فيها شرائط القبول والإثابة من القصد والتقرب إلى الله وطلب رضائه والإخلاص له، وكذا ما يقابل ذلك من أعمال توفّرت فيها موجبات سخط المولى وغضبه واستحقاق عقوبته لتعمد انتهاك حرماته عزّ وجلّ.

فكيف يضيع الله أجر من أحسن عملاً، وكيف يتم العفوّ والغضّ عمن طال عهده بالمبارزة لربه بالمعاصي بمجرد أن ختم للأول بعمل سيّء، أو ختم للآخر بعمل صالح.

والجواب عن ذلك هو: أن حسن أو سوء العاقبة ليس أمرًا عارضًا يطرأ على الإنسان صدفة عند خاتمة حياته بحيث يحصل بدون مقدماته أو أسبابه ليتنافى ذلك مع عدله تبارك وتعالى، وإنما هو أمر مكتسب مسبّب عن واقع حال نفس الإنسان، أعني صورته الباطنية التي سيأتي الحديث عنها مفصلاً، والتي تتشكل من مجمل معتقدات الإنسان وأخلاقه وسلوكه في مجمل حياته، وعاقبة الإنسان تتناسب تمامًا مع صورته الباطنية تلك.

وسلوك الإنسان العملي وإن كان جزءًا من تلك المنظومة المؤثّرة، إلا أنه ليس هو الأشد تأثيرًا، خصوصًا إذا كانت قيمة العمل تابعة لشخصية العامل ونيته وقصده، إذ رُبّ عمل صالح بحسب الظاهر إلا أنه فاقد لشروط القبول والقربى، أو أنه كان تامًا مقبولاً لكنه أُتبع بما يُحبطه من عمل قلبي كالعجب أو غير قلبي كالمنّ بالصدقة، وبالمقابل فإن العمل الفاسد لا يلزمه فساد النفس، لصدوره أحيانًا بلا قصد، أو أنه تبعه الاستغفار ولم يكن معه إصرار، ورُبّ سيئة تسوؤك خير من حسنة تُعجبك كما ورد في مضمون بعض الأحاديث الشريفة عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام)[10].

وبالتالي فالعمل وحده ليس هو الكاشف عن حقيقة المرء، وإنما العمدة على ما يحمله في نفسه وقلبه، ويُستشف هذا المعنى مما ورد في بعض النصوص:

منها ما عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى **قلوبكم وأعمالكم**[11].

ومنها ما عن الإمام علي (عليه السلام): قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه فمن طهر قلبه نظر الله إليه[12].

ومنها ما عن الإمام الباقر (عليه السلام): إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرًا **فانظر إلى قلبك**، فإن كان يحبّ أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب[13].

فالحكم على الإنسان بالإيمان أو الكفر على اختلاف مراتبهما إنما هو بحسب ما يحمله هذا الإنسان منهما في قلبه وعقله، فالقلب موطن لهما، وإليه ينظر الله تبارك وتعالى وبه يثيب وبه يعاقب، وليس العمل إلا نتاجًا للقلب، ولا يخفى أن هذا الحكم يختلف باختلاف حال هذا القلب وتقلباته، فيحكم على الإنسان في كل آن بما يطابق حاله، وليس ذلك لمجرد حظّ عاثر أو توفيق لا دخل للعبد فيه.

فمن ختم له بعمل أهل الجنة، وهو العمل الصادر منه بقصد التقرب به إلى خالقه -ولا يصدر مثل هذا العمل الصالح إلا من نفس على شاكلة ذلك العمل من الصلاح- كان له الخاتمة الحسنى، و كذلك من ختم له بعمل أهل النار كان له سوء العاقبة.

وأما ما سلف من أعمال فهي إن كانت صالحة ولم تصر سببًا لمزيد التوفيق لمثلها أو لخير منها، فلا تضيع عنده تعالى، إلا أن يتبعها صاحبها بما يوجب الحبط فتصبح هباءً منثورًا. وأما الأعمال السيئة فهي بدوًا سببٌ لسوء التوفيق **{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}**[14].

والحديث عن الحبط والتوبة يحتاج إلى بسط مقال لا مجال له ههنا.

التغير والانحراف تدريجي ظاهر و خفي يظهر فجأة

انحراف الإنسان قد يحصل **تدريجيًا بشكل بطيء يظهر للآخرين** من خلال سلوكه، بحيث يتردّى شيئًا فشيئًا من التقوى والالتزام إلى الفسق والفجور والتفلّت.

وقد **يخفى تحوّله ذاك عن الناس**، لمواظبته على ما اعتاده من العبادات، فلا يتغير سلوكه الظاهريّ بتغيّر قلبه، إلا أنه لا بدّ أن يظهر ذلك في فلتات لسانه أو بعض تصرّفاته، وقد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة[15].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): لا تغترّوا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة[16].

وقد يخفى ذاك التحوّل حتى عن نفس صاحبه، فينزلق في مهاوي الفسق والفجور أو حتى الكفر، وهو غير ملتفت إلى ذلك بل لا يزال يظن بنفسه خيرًا، وهذا هو الأخطر، إذ أن مثل هذا لا يكتشف واقع حاله ولا يرى نفسه بصورتها الباطنية إلا عند الموت، فيعدل عن الإيمان إلى ما دون ذلك بحسب سوء حاله على ما سيأتي تفصيله. قال تعالى: **{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}**[17].

الصورة الباطنية

إن لكل واحد مّنا صورة باطنية لنفسه نظير الصورة الظاهرية المادية لجسده، إلا أن صورة النفس تنطبع على طبق ما يختزنه هذا الإنسان في عقله من المعتقدات، وما يتبنّاه من المبادئ والأخلاق، وما يكتسبه في مسلكه من أعمال يجترحها، أو يرغبها ويتطلع لإتيانها، فمن مجمل ذلك يُكوّن الواحد منّا لذاته صورة خاصة به، تتبدل هذه الصورة بما يحدثه صاحبها من تلك العوامل.

ثم إن كثيرًا من الناس -من المؤمنين فضلاً عن غيرهم- لا يلتفت هو شخصيًا إلى صورة نفسه تلك، بل هو محجوب عنها بسبب انشغاله عنها بصورته المادية، فيعطي كل عنايته واهتمامه لحاجاته الجسدية وممتلكاته المادية، ولمعنوياته الدنيوية، ويهمل رعاية قلبه ونفسه.

نعم من نال حظًا من العرفان واشتغل بالسلوك إلى الله تبارك وتعالى يدأب على مراقبة باطنه ودخيلته ومحاسبة نفسه على كل فكرة وخاطرة، فضلاً عن احتياطه في السلوك والعمل، فهو في خوف دائم من التراجع والتردّي، وفي سعي كادح للازدياد مما يقربه من مرضاة الخالق، وهو دائمًا يزن نفسه يحاول أن يعرف قدرها قبل يوم الميزان.

بينما الآخرون في سكرة الحياة غافلون، حتى إن الواحد منهم في آخر لحظة من عمره يأتيه الموت وقد كوّن لنفسه صورة لم ينظر إليها قط ولم يعرف وزنها، فضلاً عن أن يراها ويتعرّف عليها غيره من الناس.

كيف تظهر الصورة الباطنية؟

عندما يأخذ الإنسان بمعالجة سكرات الموت واضطراب الروح والانقطاع عن عالم المادة الذي كان يُشكّل حجابًا يحجب بصيرته، يبدأ عالم الآخرة بالانكشاف له **{لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}**[18]، حينذاك تنكشف له نفسه على حقيقتها، وتتصور له ذاته في آخر حالة وصلت إليها في ذلك الحين، لتكون هي عاقبته.

فتتمثّل له عقائده وأخلاقه وأعماله، وتظهر بصورها البرزخية الجزائية، إذ كل عمل له في عالم البرزخ صورة غير صورته في عالم الدنيا، لأن عالم الدنيا عالم مادي إنما تظهر فيه الآثار المادية فقط، وعالم البرزخ هو عالم تظهر فيه الآثار الروحية والنفسية، فتتمثل سائر الأعمال صالحة أو طالحة بصورها المناسبة لها، بما يشبه صورة إنسان أو حيوان أو غير ذلك مما هو مؤنس له إن كان ذا عاقبة حسنة أو موحش إن كان ذا عاقبة سوء، والظاهر أن هذا هو ما يعبّر عنه بتجسّم الأعمال بعد الموت.

فمثلاً: تتحدث بعض الروايات عن أنه يصحب الميت في القبر أشخاص وذوات لها صور حسنة هي عقائده الحقّة، كولاية أهل البيت (عليهم السلام)، وكأعماله الصالحة وأخلاقه الحسنة من صلاة وصيام، وزكاة وصدقة، وحجّ وعمرة، وبرّ وصلة رحم وصبر[19]، أو ذوات لها صور قبيحة كالأفعى والعقرب، والنار والظلمة، ونحو ذلك مما يرعب ويؤذي، وهي صور لعقائده الفاسدة من الشرك والشك، وأخلاقه السيئة كسوء الخلق، وأعماله القبيحة من ترك للواجبات، وارتكاب للمحرمات كالعقوق وشرب الخمر والزنا والقتل.

فظلم الظالمين ينقلب إلى ظلمة فتسْوَدّ وجوههم، والدراهم والدنانير التي يكنزونها ولم يؤدّوا زكاتها تنقلب إلى نار تكوى بها جباههم وجنوبهم، ومال اليتيم الذي أكلوه ظلمًا ينقلب إلى نار يأكلونها في بطونهم، وهكذا.

فكل إنسان ينتقل إلى عالم البرزخ بصورته البرزخية[20] التي كوّنها لنفسه في عالم الدنيا.

أسباب التحوّل والتغيّر

ينبغي تسليط الضوء على الأسباب التي تجعل الإنسان يتحوّل عن طريق سلكه مدة طويلة ليعود ويتبع سبيلاً غيره، فإن معرفة الأسباب تمكّن المؤمن من الحذر والتوقي عن المزالق التي تودي به إلى سوء الخاتمة، فيحافظ على استقامة سلوكه ليضمن ثبات الإيمان وحسن العاقبة، بل ليرتقي في مدارج الكمال والقرب.

يتبع =

تابع مقال = الإيمان المستودع.. سوء الخاتمة والعديلة عند الموت

وقد قدمنا أن لسوء العاقبة مراتب فلنتحدث عن أسباب بعض تلك المراتب([21])، فمنها:

سوء الخاتمة بالكفر أو الجحود أو الشك

وهذا بالطبع أعظم وأخطر أنواع الخواتيم، **وهو مصداق لما تحدثت عنه** الروايات من **الإيمان المعار**، وسببه أحد أمرين، الأول التشكيك في العقائد الحقة، والثاني ضعف الإيمان وحب الدنيا والتعلق بها.

فمن يبتلى بذلك يموت كافرًا بعد أن كان مؤمنًا ظاهرًا، صنفان:

أحدهما: من كان يختزن قلبه الشك بالله أو بأنبيائه ورسالاتهم أو بأوصيائهم، بسبب عدم التدبّر والتفكّر، فهو وإن كان لا يظهر ذلك في حياته ولا يُبديه، إلا أنه عند الموت يختم له بواقع عقيدته من الجحود والكفر والشك، فإذا أراد أن يجيب الملكين عندما يسألانه عن ربّه وعن دينه وعن نبيّه وعن إمامه وعن سائر معتقداته، فإنه لا ينطلق لسانه بقول (الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيّي وعليّ إمامي...إلخ) كما كان ينطق بتلك الألفاظ حال حياته، لأنه حينذاك يتكلم بلسان واقعه.

ومن المشكّكين من لم يتجنب العصبية فيما يعتقد، بل كان يسير على دين الآباء والأجداد تعصّبًا، فتابعهم على ما هم عليه من دون أن يعتقد ويتيقن سلامة معتقدهم، فهذا في الحقيقة شاك لا دين له حتى لو كان دين آبائه الذي تابعهم في اعتناقه هو دين الحق ومذهبهم هو مذهب الصواب، ومثل هؤلاء كمثل من تابع آباءه في عبادة الأصنام والأوثان، فكلٌّ لا يرجو عن دين آبائه حولاً ولا يبغي عنه منقلبًا ولو كان آباؤه في ضلال مبين، فهؤلاء يختم لهم بالكفر ومن ثمّ بالخلود في جهنم، لأنهم لم يُسلموا ولم يؤمنوا ولم يعتقدوا بدين الحق.

ومنهم أيضًا: من تابع الآباء والأجداد في اعتقاد خلاف الحق فيما يتعلق بالله وصفاته وأفعاله، وفي سائر ما يلزم اعتقاده من النبوة والإمامة والمعاد وخصائص كل منها، كمن يعتقد بالتجسيم أو الجبر، أو لا يرى ولاية أهل البيت (عليهم السلام)، فعندما يقترب الموت ينكشف له الغطاء عن بعض تلك الحقائق، فيراها على خلاف ما كان يعتقد، فيؤدي ذلك إلى أن يسري شكه حينئذ إلى سائر معارف دينه، فيختم له بالشك([22]) سراية لا أصالة، ولا ينجيه من ذلك زهده وصلاح سلوكه، فإن الصلاح إنما ينفع ويكون سببًا لزيادة الاهتداء بشرط الإخلاص، وأنّى به لذي العصبيّة.

وغالب من يبتلى بهذا النوع هم أهل الفكر والنظر، دون البسطاء من الناس فإنهم يثبتون على ما أخذوه من الشرع، لعدم اعتيادهم التشكيك بسبب عدم خوضهم في مسائل العقائد بأدلة فلسفية وعقلية نظرية، وإنما يعتمدون على اتّباع الفطرة في أصول الدين وأصول المعتقدات.

إلا أنه لا يخفى أن الحجة قائمة على الكل، وأن الكفار والمشركين والمخالفين مقصّرون لا قاصرون، إذ الفطرة موجودة عند كل البشر، لكن أكثر الناس عن ذكر ربهم معرضون، فإن الله تبارك وتعالى أظهر الحق، حتى إن المقدار الذي يجب الاعتقاد به من أصول الدين واضح لمن أراده حتى لو كان له أقل مرتبة من الفهم والعقل، ففي قضية الولاية لأهل الحق فإن الحجج المعصومين متميّزون عن أهل الباطل تميّزًا يتضح بأدنى تأمل في سيرة هؤلاء وهؤلاء، فلا عذر لمن يعدل بعلي (عليه السلام) غيره، فضلاً عمّن يتولى معاوية دونه، أو يتولّى يزيداً بدل الحسين (عليه السلام)، أو يرى هارون الرشيد خليفة للمسلمين دون موسى بن جعفر (عليه السلام)، وهكذا.

الثاني من أسباب سوء الخاتمة بالكفر والجحود: ضعف الإيمان من الأصل، المتسبّب من استيلاء حبّ الدنيا على القلب ونسيان الربّ حتى لا يبقى له موضع في القلب، ولا يزال ينطفئ نور الإيمان حتى يكره لقاء الله عند الموت فيكره الله لقائه فيحشر كافرًا، ومثله كمثل تارك بعض الواجبات كالحج، أو مقترف بعض المحرمات مصرًا عليها غير آبه بعقوبتها.

وقد ورد في الحديث: (من مات ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا)([23])، فإن تَرْكَ الحج إذا كان حبًا للدنيا وبغضًا للمولى فإنه ينقلب عند الموت بغضًا محضًا للمولى.

وقد تكون صغيرة ارتكبها وعاودها وأصرّ عليها، أو تهاون فيها واستصغرها ورضي بها، بل أحب ارتكابها وسعى لنيل لذّتها، فهو ذاكر لمثل هذه المحرمات، ملتفت إليها، متعلق القلب بها، راغب في ارتكابها، غير آبه بعقوبتها، فتترسخ في نفسه حتى تصير جزءًا من صورته الحقيقية وذاته البرزخية، فإذا قبضت روحه وهو على هذا الحال، متعلق بالحرام، مدبر بوجهه عن ربه، لم يدرك توبة نصوحًا تقلع من نفسه حبّ تلك المعصية ومزاولتها والإصرار عليها، فيموت وهو محبّ لذنبه، متعلق لأجله بدنياه، كاره للقاء الله، فيحجب بذلك عن رحمته، لأن من كره لقاء الله كره الله لقاءه.

يصف أمير المؤمنين (عليه السلام) بعض هؤلاء بقوله:

كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، بلى والله، لقد سمعوها ووعوها، ولكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها...([24]).

ما يُثبّت الإيمان ويسلم به من خاتمة الكفر

وهو جملة من الأمور المتصيدة من النصوص:

منها: أن يكون الإنسان متفكرًا متبصّرًا متحريًا للواقع، صادقًا مع نفسه، متجنبًا للعصبية واتباع الهوى.

فعن الإمام عليّ (عليه السلام): يا كميل إنما تستحقّ أن تكون مستقرّا إذا لزمت الجادة الواضحة، التي لا تخرجك إلى عوج، ولا تزيلك عن منهجِ ما حملناك عليه و(ما) هديناك إليه([25]).

وعن الصادق (عليه السلام): إن الحسرة والندامة والويل لمن لم ينتفع بما أبصر، ولم يدر الأمر الذي هو عليه مقيم أنفع له أم ضرّ؟، قلت له: فبم يعرف الناجي من هؤلاء جعلت فداك؟ قال: من كان فعله موافقًا لقوله فأثبت له الشهادة بالنجاة، ومن لم يكن فعله لقوله موافقا فإنما ذلك مستودع([26]).

ومنها: أن يكون متوكلاً على الله تعالى في نجاته وتحصيل علمه ومعرفته وحجته.

وقد ورد في الدعاء: اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرّفني نبيك فإنك إن لم تعرّفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرّفني حجتك فإنك إن لم تعرّفني حجتك ضللت عن ديني.

ومنها: الحبّ والبغض في الله، فعن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه سأل أصحابه: أيّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الصلاة. وقال بعضهم: الزكاة... فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله، وتوالي أولياء الله، والتبرّي من أعداء الله([27]).

ومنها: العمل الصالح، فعن الإمام الصادق (عليه السلام): لا يثبت له الإيمان إلا بالعمل والعمل منه([28]).

ومنها: الورع، فعنه (عليه السلام) أيضًا، وقد سئل عما يثبت الإيمان في العبد، فقال: الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع([29]).

ومنها: الدعاء، فعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: إن الله جبل النبيين على نبوتهم فلا يرتدون أبدًا، وجبل الأوصياء على وصاياهم فلا يرتدون أبدًا، وجبل بعض المؤمنين على الإيمان فلا يرتدون أبدًا، ومنهم من أعير الإيمان عارية، فإذا هو دعا وألحّ في الدعاء مات على الإيمان([30]).

وروى الشيخ الطوسي عن محمد بن سليمان الديلمي أنه قال للصادق (عليه السلام): إن شيعتك تقول أن الإيمان قسمان فمستقر ثابت ومستودع يزول، فعلمني دعاء يكمل به إيماني إذا دعوت به فلا يزول. قال (عليه السلام): قل عقيب كل صلاة مكتوبة: رضيت بالله ربّا، وبمحمّد صلّى الله عليه وآله نبيّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلةً، وبعليّ وليًّا وإمامًا، وبالحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن عليّ، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعليّ بن موسى، ومحمد بن عليّ، وعليّ بن محمد، والحسن بن عليّ، والحجة بن الحسن صلوات الله عليهم أئمةً، اللهم إني رضيت بهم أئمة فارضني لهم إنك على كل شيء قدير([31]).

دعاء العديلة

ذكر الشيخ عباس القميّ رحمه الله في مفاتيح الجنان، أنه قد ورد في الأدعية المأثورة: (اللهم إني أعوذ بك من العديلة عند الموت). قال: ومعنى العديلة عند الموت هو العدول إلى الباطل عن الحقّ، وهو بأن يحضر الشيطان عند المحتضر ويوسوس في صدره ويجعله يشكّ في دينه، فيستلّ الإيمان من فؤاده، ولهذا قد وردت الاستعاذة منها في الدعوات.

وقال فخر المحققين رحمه الله: من أراد أن يسلم من العديلة فليستحضر الإيمان بأدلتها، والأصول الخمس ببراهينها القطعيّة بخلوص وصفاء، وليودعها الله تعالى ليردّها إليه في ساعة الاحتضار، بأن يقول بعد استحضار عقائده الحقة: اللهم يا أرحم الراحمين إني قد أودعتك يقيني هذا وثبات ديني وأنت خير مستودع، وقد أمرتنا

بحفظ الودائع، فردّه عليّ وقت حضور موتي([32]).

ومن الأدعية المناسبة لذلك: يا مقلب القلوب والأبصار صلِّ على محمد وآل محمد وثبت قلبي على دينك ودين نبيك صلى الله عليه وآله، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب([33]).

{رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}([34]).

وأما سبب سوء الخاتمة بالفسق والعصيان

فهو اقتراف الذنوب والانهماك في الشهوات مع وجود الإيمان قويًا في القلب، فلا همّ له حتى عند الموت إلا بما يشتهيه من الدنيا، فهو في قلبه إيمان وحبٌّ لله، لكنه محجوب بما ران على قلبه من المعاصي، فيعذب بذنوبه لكن دون عذاب الكافرين **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}**([35])، فقد ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنبًا خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبدًا، وهو قول الله تعالى **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ.. الآية}**([36]).

والاحتراز عن هذا النوع يكون:

أولاً: بالتوبة، فإن من كان ذا فطرة سليمة وعقيدة قويمة، ولكن غلب عليه التقصير في أعماله والانحراف في أفعاله، فقد تكون زلة اقترفها وتاب منها، فهذه التي تغفر له وتكفّر عنه، بل قد يبدل مثل هذه السيئات بالحسنات، ولا تؤثر في نفس المؤمن العاصي أثرًا بليغًا.

قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}([37]).

وثانيًا: بالحذر من حب الدنيا وطول الأمل، فعن أمير المؤمنين (عليه السلام): ألا إن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة([38]).

وثالثًا: بأن يرغِّب نفسه بالصلاح وأهل الصلاح وعمل الصالحين فقد ورد أنه أتى رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله رجل يحبُّ من يصلي ولا يصلي إلا الفريضة، ويحب من يتصدق ولا يتصدق إلا بالواجب، ويحبّ من يصوم ولا يصوم إلا شهر رمضان، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): المرء مع من أحبّ.

ورابعًا: بكثرة ممارسة الطاعات والذكر والصلوات... فإنها تشغله عن بعض أمور الدنيا وتشغل قلبه بعد ذلك بحب الله عن حب الدنيا.

وأما سبب سوء الخاتمة بالنقص

وهو إما **نقص عن مراتب الكمال** الذي يحذره المعصومون والكمّل، وهذا يحتاج البحث عنه إلى مجال أوسع.

وإما **نقص عن بعض مراتب** الفضل التي حازها، فإن ارتكاب بعض المحرمات بل المكروهات يترتب عليه آثار وضعية كالحرمان من التوفيق لبعض الطاعات، وهو ما يطلق عليه (الخذلان) عند أهل السلوك والعرفان، ونقتصر في بيان هذا على أنموذج من الروايات والأدعية المأثورة مثل ما ورد من أنه جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فقال: يا أمير المؤمنين إني قد حرمت الصلاة بالليل، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) أنت رجل قد قيدتك ذنوبك([39]).

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي: (إلهي ما لي كلما قلت قد تهيأت وتعبأت وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك ألقيت على نعاسًا إذا أنا صليت، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت، ما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي، وقرب من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي، وحالت بيني وبين خدمتك، سيدي لعلك عن بابك طردتني، وعن خدمتك نحيتني، أو لعلك رأيتني مستخفًا بحقك فأقصيتني، أو لعلك رأيتني معرضًا عنك فقليتني، أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني، أو لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغافلين، فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني، أو لعلك لم تُحبّ أن تسمع دعائي فباعدتني، أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني، أو لعلك بقلة حيائي منك جازيتني)([40]).

(انتهى المقال)

([21]) ذكر هذه المراتب وبيّن أقسامها وأسبابها وكيفية الخلاص منها الشيخ النراقي (قدس سره) في (جامع السعادات: ج1 / 214).

([22]) ينقل النراقي في جامع السعادات عن الفخر الرازي أنه بكى يومًا، فسألوه عن سبب بكائه، فقال: اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف لي اليوم بطلانه، فما أدراني أن لا تكون سائر معتقداتي كذلك.

([23]) وسائل الشيعة (آل البيت): 11/32، ب7 من أبواب الحج، ح7.

([24]) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية، والآية من سورة القصص:83

([25]) ميزان الحكمة: ج1 ص 200، عن البحار: 69/213.

([26]) ميزان الحكمة ج1 ص279.

([27]) المصدر نفسه: ج1 ص199.

([28]) المصدر نفسه: ج1 ص200.

([29]) المصدر نفسه: ج1 ص279 عن الخصال.

([30]) المصدر نفسه: ج1 ص279 عن الكافي ص419.

([31]) مفاتيح الجنان ص123.

([32]) ذكر هذا الكلام الشيخ القمي ره في مفاتيح الجنان صفحة123 بعد نقله للدعاء الطويل المعروف بدعاء العديلة، الذي شكك في كونه من المعصوم أو من إنشاء بعض العلماء، كما نقل عن المحدّث الميرزا حسين النوري أنه يرى أنه من مؤلفات بعض أهل العلم، وليس بمأثور ولا موجود في كتب حملة الأحاديث ونقّادها.

([33]) مفتاح الفلاح، الشيخ البهائي، تعقيبات الصباح، ص54.

([34]) آل عمران:8.

([35]) المطففين: 14-15.

([36]) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: 10/293.

([37]) النساء:17-18.

([38]) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي: 14/56.

([39]) الكافي، الكليني: 3/45، ح34..

([40]) بحار الأنوار: 86/95-87.

الهوامش

1 ـــــــــــ () الكافي، الكليني: ج2 ص418 ح3.

2 المصدر نفسه: ج2 ص418 حديث2.

3 ميزان الحكمة: ج3 ح 4616، عن كنز العمال590.

4 المصدر السابق نفسه: ج3 حديث4615، عن كنز العمال545.

5 المصدر نفسه: ج3 حديث4617عن كنز العمال598.

6 المصدر نفسه: ج3 حديث4606، عن البحار71-366-13.

7 الأنعام: من الآية98.

8 تفسير العياشي ص112-113.

9 ميزان الحكمة ج1ص200، ح 278، عن شرح النهج: 13-101 خطبة 189.

10 كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام). انظر: مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: 1/139، بحار الأنوار: 69/321.

11 ميزان الحكمة: ج 8 ح16917، عن أمالي الطوسي: 536-1126.

12 المصدر نفسه: ج 8 حديث 16969، عن غرر الحكم 6777.

13 الكافي، الكليني: ج2 ص127، باب الحب في الله والبغض في الله، ح11

14 الفرقان: من الآية70.

15 ميزان الحكمة: ج1 ص214، بحار الأنوار: 68/9، ح13.

16 المصدر نفسه: 2/1574 عن الكافي 2-104 ح2.

17 الكهف:103-104.

18 سورة ق آية22

19 روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: اذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهًا، وأبهاهن هيئة، وأطيبهنّ ريحًا، وأنظفهنّ صورة، قال: فتقف صورة عن يمينه، وأخرى بين يديه، وأخرى خلفه، وأخرى عند رجليه، وتقف التي هى أحسنهنّ فوق رأسه، فإن أتي عن يمينه منعته التي عن يمينه، ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الستّ، قال: فتقول أحسنهن صورة: من أنتم جزاكم الله عني خيرًا؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برّ من وصلت من إخوانك، ثم يقلن: من أنت؟ فأنت أحسننا وجهًا وأطيبنا ريحًا وأبهانا، فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. (انظر: بحار الأنوار: 6/234).

20 هو صور برزخية للأشياء، فتكون رؤياه صادقة ولكن لا يستطيع أن يعبّرها ويفسّرها إلا من يعرف حقائق الصور البرزخية، ممن استفاد معرفته من كلام الله تبارك وتعالى والأنبياء (عليه السلام)، وقد ورد في القرآن الكريم حكاية عن يوسف (عليه السلام): {ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي} (يوسف: من الآية37)، وورد في الحديث أن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءًا من النبوة (بحار الأنوار: 49/283 ح2). نعم قد يرى النائم مجموعة من صورٍ برزخيةٍ شتّى غيرِ متناسقةٍ، وهي ما يسمى بأضغاث الأحلام، وهذه غير واضحة التفسير. ويمكن التعرف إلى بعض الصور البرزخية من خلال ما ورد في القرآن أو الأحاديث الشريفة من تفسير لبعض الرؤى، وقد فسر يعقوب (عليه السلام) الشمس والقمر بالأب والأم، والكواكب الأحد عشر بالأخوة، وفسر يوسف (عليه السلام) البقرات السمان والسنبلات الخضر بالسنين الخصبة، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين الشداد الجدبة، وعصر الخمر بخدمة العاصر لمولاه، وأكل الطير من الخبز المحمول فوق الرأس بالصلب..

العلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي

الشيخ أمين ترمس

الشيخ أمين ترمس

في كل زمن يقيّض الله تعالى من يدافع عن دينه وينصر نبيه (صلى الله عليه وآله) ويذود عن الحق وأهله، بأساليب متعددة، وطرق مختلفة، فمنهم من دافع بالسلاح وجاهد وقدّم دمه في سبيل الله تعالى، ومنهم من قدّم ماله وما يملكه لنصرة الحق، وهناك فئة أخرى قارعت الباطل، وكشفت زيغه، وفضحت أكاذيبه من خلال الفكر والعقل، بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، والحجج الدامغة، فكان جهاد هذه الجماعة أعظم وأشدّ على المعادين للإسلام والحق من ضرب السيوف وطعن الرماح، ومن هؤلاء العلماء العظماء الذين برزوا واشتهروا في دفاعهم عن الحق العلامة محمد جواد البلاغي.

اسمه ونسبه

وهو الشيخ محمد جواد ابن الشيخ حسن بن طالب البلاغي الربعي النجفي، فهو ينحدر من أسرة عريقة، بل من أعرق الأسر العراقية، وقبيلته (ربيعة) من القبائل العربية التي لها أمجادها في الجاهلية والإسلام.

مولده ونشأته

ولد (رحمه الله) في النجف الأشرف في شهر رجب سنة 1282هـ في محلة تعرف (بالبراق) ونشأ في جوار مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بيت من البيوت المعروفة بالعلم والفضل، والمشهورة بالتقوى والصلاح، وقد رعاه والده العلامة الشيخ حسن رعاية خاصة، فأدخله إلى حلقات الدروس العلمية -سواء منها الدينية والأدبية- منذ نعومة أظفاره، ففتح عينيه على الكتاب والقلم، والعلم والمعرفة، كما هي سيرة آبائه وأجداده رحمهم الله، فدرس المقدمات على أعلام النجف وفضلائها إلى أن برع بين أقرانه، وتفوّق على زملائه، فبات يشار إليه بالبنان، وأصبح ذكره على كل لسان، ولكن نفسه الرفيعة، وهمته العالية، وطموحه الذي لا يقف عند حدّ، كل ذلك حتّم عليه الخروج من حوزة النجف الأشرف، فيمّم وجهه شطر الكاظمية المقدسة في بغداد سنة 1306 هـ ولازم جوار الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد (عليهما السلام)، وتعرّف هناك على العلماء والفضلاء، واكتسب جملة وافرة من العلوم والمعارف الإسلامية، هذا بالإضافة إلى ارتباطه بالأسرة العلوية الشريفة من آل الجزائري، وتزوّجِه بابنة السيد موسى الجزائري الكاظمي.

وبعد مضي ست سنوات على تركه النجف هاجه الشوق إلى وطنه وأهله فقفل راجعًا سنة 1312هـ وقد اكتسب علمًا جمًا، ومع ذلك لم تقف همته عند هذا الحدّ، بل تابع في حوزة النجف الأشرف حضوره عند كبار العلماء وأساطين الحوزة العلمية، ونهل من معينهم حتى تجاوز سنّه الأربعين، وفي سنة 1326هـ شدّ رحاله والتحق بالميرزا محمد تقي الشيرازي زعيم ثورة العشرين العراقية ضد الاحتلال الإنكليزي، وكان وقتها مقيمًا في مدينة سامراء بجوار الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام)، ولازمه مدة عشر سنوات، ونهل من معينه الكثير، وكتب هناك العديد من الكتب والرسائل، وبعد سقوط المدينة بيد الاحتلال الإنكليزي قرّر مغادرتها إلى جهة الكاظمية، وفي تلك الفترة بدأت مرحلة جديدة من تاريخ العراق في ظل الاحتلال، تصدّى خلالها العلامة البلاغي وسائر العلماء الغيارى على الدين والأمة لهمجية الاحتلال، فحضّوا جماهير الأمة على الثورة والجهاد وإخراج المحتل الإنكليزي من بلاد المسلمين، وبعد عدة سنوات أثمرت جهوده وجهاده مع سائر الشرفاء إلى اندحار الاحتلال بصورة مذلّة.

ثم بعد الهزيمة العسكرية لقوى الشر عمدوا -كما هي عادتهم عندما يفشل غزوهم العسكري- إلى غزو من نوع آخر، وهو الغزو الثقافي، فتسلّلوا إلى بلاد المسلمين بمختلف الأدوات وتحت أسماء متعددة ومسمّيات متنوعة.

وأمام هذا الواقع الجديد القديم وما ينطوي عليه من خطورة على مستقبل الأمة الإسلامية، كان لا بد للعلامة البلاغي من الدفاع بسلاح الفكر والعقل والكلمة، فوقف صامدًا كالجبل الراسخ أمام هذه الحملات من الغزو الثقافي، وأخذ يردّ مزاعمهم، ويفنّد أضاليلهم، ويبطل آمالهم، ويحطم أحلامهم، وذلك من خلال تأليف الكتب والرسائل المناسبة لتحقيق هذا الهدف.

مؤلفاته

ترك العلامة البلاغي (رحمه الله) تراثًا ثرًّا في مختلف المجالات العلمية والفكرية، فلم يقتصر في نتاجه الفكري على ما هو السائد في الحوزات العلمية من دراسات فقهية وأصولية وحديثية ونحوها، بل تعدّاها إلى علوم القرآن وخصوصًا علم التفسير، والعلوم الأخرى كالعقائد والتاريخ وعلم الهيئة، وبرز بشكل مميّز في مواجهة ما أثاره جماعة من اليهود والنصارى والفِرَق الضالة من الوهابية والقاديانية والبابية والبهائية والأزلية والملحدين من الماديين وغيرهم[1]، وتصدى بكل قوة إلى حملات التبشير والتضليل التي انتشرت في بلاد المسلمين.

وتميّزت كتاباته بحسن الأسلوب وسلاسته، وعمق البحث وموضوعيته، وسهولة التعبير وسلامته، وجمال عرضه وروعته.

ونستطيع أن نقسّم نتاجه العلمي إلى عدة حقول:

الحقل الأول: في الدراسات الفقهية

وهو أوسع الحقول وأكثرها تنوعًا، وهذا طبيعي لكونه عمدة الدراسات في الحوزة العلمية، ومن خلاله يستدل على تبحّره في علم الشريعة، واجتهاده فيه:

1- رسالة في التقليد، غير مطبوعة.

2- رسالة في ماء الغسالة، وهي ضمن كتاب (العقود المفصّلة في حلّ المسائل المشكلة)، وهو غير مطبوع بشكل كامل.

3- رسالة في تنجيس المتنجس إذا لوقي برطوبة، وهي ضمن الكتاب المتقدم ذكره، وطبعت.

4- رسالة في ضبط الكرّ، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

5- رسالة في المتمّم كرّا، غير مطبوعة.

6- رسالة في حرمة مسّ المصحف على المحدث، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

7- رسالة في وضوء الإمامية وصلاتهم وصومهم، طبعت باللغة الإنكليزية.

8- رسالة في اللباس المشكوك، وهي ضمن الكتاب المتقدم، طبعت.

9- رسالة في القبلة وتعيين مواقع البلدان المهمة في العالم من مكة المكرمة بحسب الاختلاف في الطول والعرض، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

10- رسالة في صلاة الجمعة لمن سافر بعد الزوال، غير مطبوعة.

11- رسالة في مواقيت الإحرام ومحاذاتها، ومعها خريطة في تعيين المواقيت، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

12- رسالة في الخيارات، غير مطبوعة.

13- حاشية على كتاب (المكاسب) للشيخ الأنصاري + من أول البيع إلى بيع الوقف، طبعت.

14- حاشية على كتاب الشفعة من كتاب الجواهر، غير مطبوعة.

15- حاشية على كتاب (العروة الوثقى) غير مطبوعة.

16- رسالة في حرمة حلق اللحية، طبعت.

17- رسالة في حرمة ذبائح أهل الكتاب، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

18- رسالة في الرضاع، ضمن الكتاب المتقدم.

19- رسالة أخرى في فتاوى الرضاع وأحكامه على مذهب الإمامية وأئمة المذاهب الأربعة، وهي ضمن الكتاب المتقدم.

20- رسالة في إقرار المريض. وهي ضمن الكتاب المتقدم.

21- رسالة في منجزات المريض، وهي أيضًا ضمن الكتاب المتقدم.

22- أجوبة المسائل الحليّة، غير مطبوعة.

23- أجوبة المسائل التبريزية، في الطلاق وتعدد الزوجات والحجاب وبعض المسائل الأخرى، غير مطبوعة.

24- رسالة في بطلان العول والتعصيب، غير مطبوعة.

25- رسالة في قاعدة (على اليد ما أخذت)، وهي ضمن الكتاب المتقدم، طبعت.

26- رسالة في (إلزامهم بما ألزموا به أنفسهم) أو في أن من يدين بدينٍ يُلزم بمقتضى نِحلته في مقام الحقوق، وهي أيضًا ضمن الكتاب المتقدم. طبعت.

27- كتاب في أن أغلب ما انفردت به الإمامية يمكن إقامة الدليل عليه من أحاديث مخالفيهم، تمّ منه كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، غير مطبوع.

الحقل الثاني: في أصول الفقه

28- رسالة في العلم الإجمالي، وهي ضمن الكتاب المتقدم، طبعت.

29- رسالة في الأوامر والنواهي، غير مطبوعة.

الحقل الثالث: في علوم القرآن

30- كتاب آلاء الرحمن في تفسير القرآن، لم يمهله الأجل لإتمامه، فوصل فيه إلى نهاية آية الوضوء من سورة المائدة، وكتب في هذا الخصوص إلى السيد محسن الأمين العاملي يقول:

"... مولاي منذ سنتين شرعت في تفسير للقرآن الكريم، وقريبًا -إن شاء الله- يتم طبع الجزء الأول منه... وأسألكم الدعاء بالتوفيق والتيسير والتسديد، والذي يعيقني عن سرعة السير في التفسير هو ضعف مزاجي بشدة، وكثرة الأمراض، مع انفرادي بتتبع حديث العامة والتسويد والتبييض والتصحيح وكتابة المكاتيب ومباشرتي لأمور

التعيّش، ذكرت ذلك رجاءً لإمدادي بالدعاء، وإنشاء الله أول ما يتم تغليف الجزء الأول يقدم لحضرتك منه نسخة، أرجو الغض عما فيها والله الميسر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في 28 محرم سنة 1352هـ".

ثم كتب له ثانية بتاريخ 9 شعبان 1352 هـ، أي قبل وفاته بعدة أيام يقول:

"إلى حضرة سيدنا ومولانا العلامة الأجل حجة الإسلام دام ظله وأدام الله به عزّ الدين، ومجد الشريعة، وبهجة العلم، بحرمة سيد المرسلين وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، مولاي... كنت أحبّ أن أعرف رأيك في التفسير (آلاء الرحمن) وهل يعدّ في التفاسير أو لا؟ وقد وعدت بالأمر... أسأل الله أن لا يكون قد صدّك عن وعدك سقوط الكتاب من نظرك، مولاي أقدمت على كتابته راجيًا من الله أن ينبّه الأمة من غفلاتها فيكتبوا خيرًا منه..."[1].

وقد طبع هذا التفسير أكثر من مرة في جزئين.

31- الوجيز في معرفة الكتاب العزيز، وكان قد كتبه مقدمة لتفسير آلاء الرحمن المتقدم ذكره، وقد ضمّنه أربعة فصول:

الأول: في إعجازه.

الثاني: في جمع القرآن في مصحف واحد.

الثالث: في قراءته.

الرابع: في تفسيره.

وطبع تارة مع التفسير، وأخرى بشكل مستقل.

32- رسالة في تكذيب رواية التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (عليه السلام)، طبعت.

الحقل الرابع: في العقائد والردود ومواضيع أخرى

33- الهدى إلى دين المصطفى، ردّ فيه على بعض النصارى ما افتراه من أباطيل، وفنّد مفترياتهم، طبع أكثر من مرة في مجلدين.

34- الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة، وهي مناقشة علمية هادئة وموضوعية مع أهل الكتاب في عقائدهم وكتبهم المقدسة، وقد سلّط الضوء فيها على التناقضات التي وقعت فيها هذه الكتب، وفي أثناء مناقشتهم تعرّض لآراء الفلاسفة والماديين، ومذاهبهم ومعتقداتهم الباطلة، وقد طبع أكثر من مرة في ثلاثة أجزاء، كما ترجم إلى اللغة الفارسية وطبع.

35- أعاجيب الأكاذيب، ردّ فيه على أربعة كتب من نسيج المبشرين:

أ- كتاب الهداية.

ب- كتاب هاشم العربي.

ج- كتاب رحلة الغريب ابن العجيب.

د- كتاب ثمرة الأماني.

وقد ردّ فيه على أكثر من ثلاثين افتراءًا وتزويرًا، وهو مطبوع وقد ترجم إلى اللغة الفارسية، وطبع أيضًا.

36- البلاغ المبين، اتّبع فيه أسلوبًا جديدًا من البحث العلمي يحاكي الأساليب القصصية، وهذا الأسلوب في ذلك العصر لم يكن معروفًا، سعى من خلاله لإيصال مفهوم العبودية لله تعالى والغاية من خلق البشر والمسؤوليات المترتبة عليهم، وهو بطريقة الحوار بين شخصين جمعتهما الصدفة في سفر، رمز للأول باسم (عبد الله) وللثاني باسم (رمزي)، وهو مطبوع.

37- التوحيد والتثليث، ردّ فيه على ما يدعيه النصارى، وهو مطبوع.

38- رسالة في الرد على كتاب (ينابيع الإسلام).

39- داعي الإسلام وداعي النصارى.

40- رسالة في الردّ على جرجيس، سائل في الإسلام.

41- كتاب المسيح والأناجيل.

وهذه الكتب الأربعة ردّ فيها على النصارى، ولم يطبع منها إلا الأخير فقط.

42- عمانوئيل، في المحاكمة مع بني إسرائيل.

43- رسالة في الردّ على كتاب (تعاليم العلماء) غير مطبوعة.

44- نور الهدى، في ردّ شبهات وردت من لبنان، وهو مطبوع.

45- أنوار الهدى، ردّ فيه على الطبيعيين والماديين، وفنّد شبهاتهم الإلحادية، طبع أكثر من مرة، وترجم إلى اللغة الأوردية وطبع أيضًا.

46- داروين وأصحابه، مطبوع.

47- نسمات الهدى ونفحات المهدي يردّ فيه على مقالة كتبها الدكتور زكي نجيب محمود المصري، نشرت في العدد 96 من مجلة السياسة المصرية، والتي طعن فيها بعقائد الشيعة الإمامية كالاعتقاد بالإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، وسرداب الغيبة، ونهضة الإمام الحسين (عليه السلام) بوجه الحاكم الظالم، والإمامة عند الشيعة، وعبد الله بن سبأ، وغير ذلك، وهو مطبوع.

48- رسالة في الرد على الوهابية، أو الوهابية وأصول الاعتقاد، وقد طبعت مرة بالاسم الأول، وأخرى بالاسم الثاني، وهي نفسها، وقد صرّح المحقق لها بأن الاسم الثاني هو من وضعه، كون الرسالة -حسب قوله- ليس لها اسم في الأصل.

وأما موضوع الرسالة كما هو ظاهر من اسمها، فهو رد المؤلف (قدس سره) على ما نشر في بعض الصحف السعودية من أضاليل وافتراءات.

49- دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى، ردّ فيه على الوهابية وأبطل ما زعموه من أدلة على وجوب هدم قبور الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وسائر الأولياء في مكةالمكرمة والمدينة المنورة، وخصوصًا البقيع، وهو مطبوع.

50- مصابيح الهدى، أو المصابيح في بعض من أبدع في الدين في القرن الثالث عشر، وهو ردّ على القاديانية والبابية والبهائية والأزلية، وقد طبع بعضه.

51- نصائح الهدى، أو نصائح الهدى والدين إلى من كان مسلمًا وصار بابيًا، وقد يطلق عليه (البابية والبهائية) وهو ردّ على هاتين الجماعتين، وهو مطبوع، وقد ترجم إلى اللغة الفارسية، وطبع أيضًا.

52- الشهاب، ردّ فيه على كتاب (حياة المسيح) للقاديانية، وهو غير مطبوع.

53- إلزام المتديّن بأحكام دينه، لم يطبع.

54- أجوبة المسائل البغدادية في أصول الدين، مطبوعة.

55- رسالة في مسألة البَدَاء، مطبوعة.

56- رسالة في عدم تزويج أم كلثوم بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)... لم تطبع.

وأسأل الله تعالى أن يقيّض من يجمع هذه الكتب والرسائل ويطبعها وينشرها خدمة للحق والحقيقة، ويكون قد أسدى خدمة لهذا الدين لا تقدّر.

يتبع =

([1]) بعض الفِرَق الضالة:

وهنا لا بأس بتعريف مختصر بهذه الفرق المنحرفة والضالة:

الوهابية: نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي، ولد سنة 1115هـ/1703م، ومات سنة 1206هـ/1792م، وهي فرقة ظهرت في "نجد" من بلاد الحجاز، ولهم فهم خاطئ للتوحيد، وعاملوا المسلمين معاملة سيئة جدًا أثناء حكمهم، وأباحوا الأموال والدماء، وفتكوا بهم بلا أيّ رادع أو وازع.

القاديانية: أو الأحمدية: نسبة إلى الميرزا غلام أحمد بن مرتضى القادياني، ولد في قرية "قاديان" في إقليم البنجاب الهندي سنة 1251هـ/1835م، ومات سنة 1326هـ/1908م، وفي بداية الأمر كانت دعوة هذه الفرقة منسجمة مع الخط الإسلامي العام، ولكنها انحرفت فيما بعد واعتقدت بأمور خارجة عن الدين الإسلامي، كموت المسيح (عليه السلام) ودفنه، كما أن مؤسس هذه الفرقة ادعى لاحقًا أنه نبي ورسول وما شابه ذلك من الأباطيل.

البابية: أسسها الميرزا علي محمد بن رضا البزاز الشيرازي، ولد سنة 1235هـ/1819م، وأعدم في تبريز سنة 1265هـ، وأعلن دعوته سنة 1863م، وكان يدعي أنه هو الباب إلى الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) أي هو بمنزلة السفير والواسطة بين الناس وإمامهم. وعند أصحاب هذه الفرقة كتاب "البيان" يزعمون أنه هو في عهد موسى (عليه السلام) التوراة، وفي عهد عيسى (عليه السلام) الإنجيل، وفي زمن رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) القرآن، وفي عصر الميرزا علي "البيان"، وغير ذلك من الأكاذيب المكشوفة.

البهائية: نسبة إلى مؤسسها الميرزا حسين على نوري المازندراني، المدعو "ميرزا بُزُرك"، والملقّب بـ"البهاء" (1233هـ/1817م -1309هـ/1892م)، وأعلن دعوته سنة 1844م/1260هـ، وهو يدّعي أنه الخليفة بعد أستاذه الميرزا علي محمد الشيرازي، وقد تفوّق التلميذ على أستاذه في الكذب وفي خداع بسطاء الناس، وجاهر بالكثير من الكفر، والانحراف عن جادّة الصواب حتى افتضح أمره، ولديه كتاب اسمه (الأقدس) يطفح بالهذيان، وكأنه يخاطب فيه الجن والشياطين.

الأزلية: نسبة إلى مؤسسها الميرزا يحيى، أخو حسين علي المتقدم مؤسس البهائية، وقد تنازع مع أخيه على منصب الخليفة بعد الشيرازي الباب، وكفّر كل منهما الآخر، وانقسموا على أثرها إلى البهائية والأزلية، لأن الميرزا يحيى كان يلقب (بصبح الأزل) ولديه كتاب اسمه (ألواح) وهو منحرف العقيدة كأخيه وكتابه ككتاب أخيه لا يعادل قيمة الورق الذي كتب عليه.

العلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي

الشيخ أمين ترمس

أساتذته

حضر العلامة البلاغي (قدس سره) عند أهم علماء عصره وكبار مراجع التقليد في وقته، أبرزهم:

1- الشيخ محمد كاظم الخراساني النجفي المعروف بالأخوند (1255هـ - 1329هـ).

2- الشيخ محمد طه بن مهدي نجف (1241هـ - 1323هـ).

3- الشيخ آغا رضا بن محمد الهادي الهمداني النجفي (1250هـ - 1322هـ).

4- الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي الحائري، زعيم ثورة العشرين في العراق توفي سنة 1338هـ.

5- السيد محمد بن هاشم بن مير شجاعت علي الرضوي الهندي، توفي سنة 1323هـ.

تلامذته

من الطبيعي أن تشد الرحال إلى شخصية كشخصية العلامة البلاغي، لذا تهافت عليه الطلاب وعشّاق العلم والمعرفة، لينهلوا من علومه، خصوصًا وأنه تفرّد بجملة علوم دون غيره.

ومن أبرز من حضر درسه أو روى عنه:

1- السيد أبو القاسم الخوئي، المتوفى سنة 1413هـ.

2- السيد محمد هادي الحسيني الميلاني، المتوفى سنة 1395هـ.

3- السيد شهاب الدين محمد حسين المرعشي النجفي، المتوفى سنة 1411هـ.

4- السيد محمد صادق بحر العلوم، المتوفى سنة 1390.

5- الشيخ ذبيح الله بن محمد علي المحلاتي، المتوفى سنة 1405هـ.

6- الشيخ علي محمد البروجردي، المتوفى سنة 1395هـ.

7- الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، المتوفى سنة 1378هـ.

8- الشيخ مجتبى اللنكراني النجفي، المتوفى سنة 1406هـ.

9- الميرزا محمد علي التبريزي المدرّس، المتوفى سنة 1373هـ.

10- السيد صدر الدين الجزائري، المتوفى سنة 1394هـ.

بعض ما قيل فيه من المدح والثناء

1- قال السيد محسن الأمين العاملي في حقه: [... كان عالمًا فاضلاً أديبًا شاعرًا حَسَن العشرة، سخيّ النفس، صرف عمره في طلب العلم وفي التأليف والتصنيف، وصنّف عدّة تصانيف في الردود، صاحبناه في النجف الأشرف أيام إقامتنا فيها، ورغب في صحبة العامليين، فصاحبناه وخالطناه حَضَرًا وسَفرًا عدة سنين إلى وقت هجرتنا من النجف، فلم نرَ منه الا كل خُلُق حسن وتقوى وعبادة، وكل صفة تُحمد، وجرَت بيننا وبينه بعد خروجنا من النجف مراسلات ومحاورات شعرية، ومكاتبات في مسائل علمية...][[3]].

ولو لم يكن في حقّ العلامة البلاغي إلا هذه الشهادة الحسيّة من عالم كبير كالعلامة الأمين لكفى.

2- قال الشيخ أقا بزرك الطهراني: [...كان أحد مفاخر العصر علمًا وعملاً... وكان من أولئك الأفذاذ النادرين الذين أوقفوا حياتهم وكرّسوا أوقاتهم لخدمة الدين الحنيف والحقيقة... فهو أحد نماذج السلف التي ندر وجودها في هذا الزمن] ([4]).

3- قال الميرزا محمد علي التبريزي المدرّس: [... فقيه أصولي،حكيم متكلم، عالم جامع، محدّث بارع، ركن ركين لعلماء الإمامية، وحصن حصين للحوزة الإسلامية، ومروّج للعلوم القرآنية، وكاشف الحقائق الدينية، وحافظ للنواميس الشرعية، ومن مفاخر الشيعة...] ([5]).

4- قال الأستاذ الأديب علي الخاقاني: [... أغنتنا آثاره العلمية عن التنويه بعظمته وعلمه الجمّ وآرائه الجديدة المبتكرة، فلقد سدّ شاغرًا كبيرًا في المكتبة العربية الإسلامية بما أسداه من فضل فيما قام به من معالجة كثير من المشاكل العلمية، والمناقشات الدينية، وتوضيح التوحيد ودعمه بالآراء الحكيمة قبال الثالوث الذي هدّه بآثاره وقلمه السيّال...] ([6]).

لم تقتصر حياة العلامة البلاغي على الدرس والتدريس والكتابة والتأليف، بل كان في حياته الكثير من المحطات التي تستحق أن يقف عندها كل مطلع ودارس، لما فيها من صفحات مشرقة ومشرّفة، فهو كان من العلماء البارزين الذين وقفوا في وجه الاحتلال الانكليزي وساهم مساهمة كبيرة في إثارة الناس عليه وحمل السلاح في وجهه، حتى خرج وهو يجر ذيول الخيبة وراءه، وكذلك كان موقفه عندما انتشرت الفرق الضالة في بلاد المسلمين وهبّت أعاصير الإلحاد والزندقة وتحرّكت تيارات أصحاب البدع والأهواء الفاسدة يؤازرهم جماعات من المبشرين، الذين سعوا إلى إفساد أبناء الأمة الإسلامية وإقصائهم عن اتباع الحق، فوقف العلامة البلاغي في الساحات وقارعهم بالسوط والكملة، ولم ينسَ أهل الكرخ عندما تسللت جماعة من البهائية واستولوا على مكان في محلة الشيخ بشار

في الكرخ، واتخذوه حضيرة لهم لإقامة شعائرهم الفاسدة والضالة، كيف أثار العلامة البلاغي الرأي العام ضد البهائية وأقام دعوى عليهم في المحاكم، ومنعهم من التصرّف فيه، ثم حوّله إلى مسجد يعبد الله فيه، وتقام فيه الصلوات الخمس والمجالس العلمية والمآتم الحسينية.

ومن مآثره الباقية والخالدة إقامته المأتم في اليوم العاشر من المحرم في كل عام في مدينة كربلاء المقدسة، فهو أول من أقامه، وعنه أخذ المؤمنون حتى توسّع ووصل إلى ما وصل اليه في هذه الأيام.

بعضٌ من ملامح شخصيته

من صفاته أنه كان عازفًا عن الدنيا، زاهدًا بما فيها، عفيف النفس، متواضعًا، ليّن العريكة، خفيف الروح، عذب المنطق، كان أنسه في الأبحاث العلمية والجلوس بين بساتين الكتب، باحثًا عن مسألة فقهية، أو أصولية، أو مفسّرًا لآية من كتاب الله تعالى أو شارحًا لما غمض من أفكار علمية، أو مجيبًا على شبهة قرأها في كتاب أو منشور، أو أرسلت إليه، فكان لا يغادر غرفته ومكتبته الا في أوقات الضرورة لإقامة الصلاة وزيارة الحرم الشريف أو لشراء حاجيات عائلته من غذاء ونحوه، وكان يحملها اليهم بنفسه ويعتذر لمن يريد مساعدته بحملها عنه بقوله له: [ربّ العيال أولى بعياله].

ولشدة ورعه وزهده وابتعاده عن جميع مظاهر الشهرة كان عندما يطبع وينشر كتبه ومؤلفاته لا يدوّن اسمه عليها، أو يوقّعها بأسماء مستعارة، كـ[عبد الله العربي] أو [عبد الله أحد طلبة العراق]، أو [كاتب الهدى النجفي] وغير ذلك، وهذا لم يكن منه خوفًا على حياته أو تقية لبقائه كما ظنّه البعض، فإن هذا قد يصح في الكتب التي كتبها ردًا على بعض الفرق والمذاهب والأديان الضالة والباطلة، وأما ما كتبه من كتب أخرى علمية وفكرية ومعرفية فإن الخوف والتقية لا يتصوّر فيها، ومع ذلك كان يصرّ على عدم ذكر اسمه، وهذا ما صرّح به السيد عبد المطلب الحسيني صاحب مجلة [الهدى]، فإنه عندما طبع كتاب [البلاغ المبين] لم يذكر اسم العلامة البلاغي عليه معتذرًا من القراء بقوله [لم أصرّح باسمه الشريف في طبعه لأنه هو أمر بذلك].

شعره وأدبه

كان العلامة البلاغي من الأدباء المرموقين والشعراء المبدعين يفيض شعره بالعواطف الوجدانية، ويزخر أدبه بالمشاعر الإنسانية، مع رصانة تركيبه وفصاحة ألفاظه ولطافة معانيه وحلاوة أسلوبه وطلاوته، وقد سخّره -كما سخّر نفسه من قبل- للدعوة الصادقة إلى الحق وكشف الحقائق، ودحض الأباطيل والدفاع عن الإسلام ونشر فضائل أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وقد وصف الشاعر السيد محمود الحبوبي العلامة البلاغي وقلمه فقال:

دأبت بنشر ما سميت كتبًا	ودين الله سماها دروعا
فتى القلم الذي إن صرّ ألقى	صليل المشرفي له الخضوعا
وإن تحمله مختضبا مدادًا	فما ذَا السيف مختضبا نجيعا
وإن رضع الدواة ترى شيوخ	الضلالة تتقي ذاك الرضيعا[7]

وفي عام 1317هـ أرسل أحد علماء بغداد قصيدة إلى علماء النجف الأشرف ينكر فيها وجود الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، تقع في 25 بيتًا، عُرفت في الأوساط النجفية بـ(القصيدة البغدادية)، وانبرى من كبار العلماء والأدباء للردّ عليه، منهم السيد محسن الأمين العاملي، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والعلامة البلاغي، وكان مطلع قصيدة البغدادي:

أيا علماءَ العصرِ يا من لهم خُبْرُ	بكلِّ دقيقٍ حارَ في مثلِه الفكرُ
لقد حارَ مِنّي الفكرُ في القائمِ الذي	تنازعَ فيه الناسُ والتبَسَ الأمرُ
فمِنْ قائلٍ في القشر لبٌّ وجودُه	ومن قائلٍ قد ذَبَّ عن لُبّهِ القشرُ
وكيفَ وهذا الوقتُ داعٍ لمثلِه	ففيه توالى الظلمُ وانتشرَ الشرُّ
وإن قيلَ من خوفِ الطغاةِ قد اختفى	فذاكَ لعمري لا يجوزُه الحجرُ
وإن قيلَ من خوف الأذاة قد اختفى	فذلكَ قولٌ عن معايب يفترُ
ومن عيبِ هذا القولِ لا شكَّ أنه	يؤول إلى جبنِ الإمامِ وينجرُ

فردّ عليه العلامة البلاغي بقصيدة طويلة تجاوزت المئة بيت، وهي بحقّ من روائع نظمه وعيون شعره، استهلّها بقوله:

أطعتُ الهوى فيهم وعاصانيَ الصبرُ	فها أنا ما لي فيه نهيٌ ولا أمرُ
أنستُ بهم سهلَ القفارِ ووَعرَها	فما راعني منهنَّ سهلٌ ولا وعرُ
أخا سفرٍ ولهَانَ أغتنمُ السُّرى	من الليلِ تغليسًا إذا عرَّسَ السَّفرُ
بِذامِلَةٍ ما أنكرتْ أَلَمَ الجَوى	وما صدّها عن قصدِها مَهمهٌ قفرُ

ومنها:

وفي خبرِ الثقلينِ هادٍ إلى الذي	تنازعَ فيه الناسُ والتبَسَ الأمرُ
إذا قالَ خيرُ الرُّسلِ لن يتفرّقا	فكيفَ إذنْ يخلو من العِترة العصرُ

ومنها:

وغابَ بأمرِ اللهِ للأجلِ الذي	يراهُ له في علمه ولَه الأمرُ
وأوْعَدَه أن يُحيي الدينَ سيْفُهُ	وفيه لدينِ المصطفى يُدركُ الوترُ
وإنَّ جميعَ الأرضِ ترجِعُ ملكَهُ	ويملؤها قِسطًا ويرتفعُ المكرُ
فأيقنَ أنَّ الوعدَ حقٌّ وأنه	إلى وقتِ عيسى يستطيلُ له العمرُ
فسلَّمَ تفويضًا إلى اللهِ صابرًا	وعن أمرِه منه النُّهوضُ أو الصبرُ
ولم يكُ من خوفِ الأذاةِ اختفاؤُه	ولكن بأمرِ الله خِيْرَ له السترُ
وحاشاهُ من جُبن ولكنْ هو الذي	غدا يختشيه من حَوَى البرُّ والبحرُ

ومنها:

ودونكَ أبناءَ النبيِّ به تزد	بآحادِها خُبرًا وآحادُها كترُ
فكم في ينابيع المودة منهلٌ	نميرُ به يُشفى لوارِدِه الصدرُ
وفي غيرِه كم من حديثٍ مسلسلٍ	به يفطنُ الساهي ويستبصرُ الغرُ
ومن بين أسفارِ التواريخ عندكم	يُؤلِّفُ في تاريخ مولدِه سفرُ
وكم قال من أعلامكم مثلَ قولنا	به عارفٌ بحرُ وذو خبرةٍ حبرُ

ومنها:

لئن غابَ في السرداب يومًا فإنما	على الناسِ من أُمّ القرى يطلعُ البدرُ
فدعْ عنك وهمًا تهتَ في ظلماتِه	ولا يرتضيه العبدُ كلاّ ولا الحرُّ

إلى أن قال خاتمًا قصيدته:

وقد جاءَ في الآثارِ عن كلِّ واحدٍ	أحاديثُ يَعيى من تواترها الحصرُ
تُعرّفُنا ابنَ العسكريِّ وأنّهُ	هو القائمُ المهديُّ والواترُ الوترُ
تبِعنا هُدى الهادي فأبلغنا المدى	بنورِ الهدى والحمدُ لله والشكرُ

وعندما هُدمت قبور الأئمة في البقيع من قبل الوهابيين الحاقدين في الثامن من شوال سنة 1343هـ، نظم قصيدة يتفجّع بها على تلك الرزية العظيمة، مطلعها:

دهاكَ ثامنُ شوّالٍ بما دَهَما	فَحقَّ للعينِ إهمالُ الدموعِ دمَا

ومنها:

يومَ البقيعِ لقد جلَّتْ مصيبَتُهُ	وشاركتْ في شَجاها كربلا عِظَمَا

ومن قصيدة له يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام):

يا تَريبَ الخدِّ في رَمْضَا الطُّفوفْ	ليتني دونَك نهبًا للسيُوفْ
يا نصيرَ الدينِ إذْ عزَّ النصيرْ	وحمى الجار إذا عز المجيرْ
وشديدَ البأسِ واليوم عسيرْ	وَثِمَالَ الوفدِ في العامِ العَسوفْ

ومنها:

سيدي أبكيكَ للشيبِ الخضيبْ	سيدي أبكيكَ للوجهِ التريبْ
سيدي أبكيكَ للجسم السليبْ	مِن حَشًا حَرّانَ بالدمعِ الذَّرُوفْ
سيدي إن منعوا عنك الفُراتْ	وسَقَوا منكَ ظِماءَ المُرهفَاتْ
فسنسقي كربلا بالعبَراتْ	وكفًا من علقِ القلبِ الأسُوفْ

ومن قصيدة له في الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) يوم مولده:

حيِّ شعبانَ فهو شهرُ سُعُودِي	وعدُ وَصلِيَ فيه وليلةُ عِيدي
منه حَيا الصبُّ المشوقِ شذَا الميـ	ـلادِ فيه وبهجةُ المولودِ
بهجةُ المرتضى وقُرّةُ عينِ المـ	ـصطفى بل ذخيرةُ التوحيدِ

ومنها:

طُلتِ فخرًا يا ليلةَ النصفِ من شعـ	ـبانَ بيضَ الأيامِ بالتسويدِ
يا إمامَ الهدى سعدتَ وما كلُّ	زمانٍ في ذاتِه بسعيدِ

ومنها:

شاهرَ السيفِ ناشرَ العدلِ ماحيَ الـ	ـجَوْرِ حاميَ الجوارِ مأوى الطريدِ
خاتمَ الأوصياءِ جامعَ شملِ الـ	ـدينِ بعدَ التفريقِ والتبديدِ

ويختم بقوله:

كم نُعاني الشوقَ المبرحَ تفـ	ـديكَ المحبونَ والفراقَ المودي
فمتى ينقعُ العليلُ بلُقْيَا	كَ وتُطفَى لواعجُ المعمودِ
فتحنّنْ على حنينِ نشيدي	يا سميعًا يدري بلحنِ قصيدي

وفاته ومدفنه وما قيل في رثائه

توفي العلامة البلاغي رحمه الله في ليلة الاثنين 22 شعبان لعام 1352 هـ إثر مرض ألمّ به.

وما إن شاع خبر وفاته حتى هبّت مدينة النجف الأشرف بكاملها، شيبها وشبانها، وكبارها وصغارها، وشيّع تشييعًا مهيبًا يليق بمقامه، سار فيه آلاف من المؤمنين، يتقدمهم كبار العلماء والمراجع والفضلاء، ودفن في الحجرة الثالثة من الجهة الجنوبية للصحن الشريف لمرقد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهي الحجرة المعروفة بآل العاملي.

ولقد رثاه كبار العلماء وفحول الشعر والأدب بقصائد مؤثّرة معبّرة مفعمة بالحزن، والأسى على فقده، وأول من رثاه خاله العلامة السيد رضا الهندي إمام الشعر في عصره في قصيدة في غاية الروعة، مطلعها:

إنْ تُمسِ في ظُلَم اللُّحودِ مُوسَّدا	فلقد أضأْتَ بهنّ (أنوارَ الهُدى)
ولئن يُفاجئك الرّدى فلطالما	حاولتَ إنقاذَ العبادِ من الرَّدى
قد كنتُ أهوى أنني لكَ سابقٌ	هيهاتَ قد سبَقَ (الجوادُ) إلى المدى
فلينْدُبِ (التوحيدُ) يومَ مماتِه	سيفًا على (التثليث) كان مُجرّدا

ومنها:

أَأُخَيَّ كم نثرتْ يداكَ من (الهُدى)	بذرًا فطِبْ نفسًا فزرعُك أحصَدا
إن كنتَ لم تُعقبْ بنينَ فكلُّ منْ	يهديه رُشدُك فهو منك تولّدا

وممن رثاه العالم الكبير الشيخ محمد رضا المظفر في قصيدة مستهلها:

يا طرفُ جُد بسواد العين أو فذر	ماذا انتفاعك بعد الشمس بالنظر

ومنها:

قد كان كالبدر في ليل الشتا ومضى	كالشمس معروفة بالعين والأثر

ومن جملة من رثاه العلامة المرجع الديني الشيخ محمد تقي الفقيه في قصيدة ضمّنها تاريخ وفاته، منها:

أفنيتَ نفسَك بالجهادِ وطالما	بدمائِها رَوّى اليراعَ الظامي
حتى تراءَتْ في الجِنانِ مَهيضةً	هتَفَ الملائكةُ: (ادخُلي بسلامِ)

ومنها:

صيَّرتَ قلبَكَ شمعةً وحملتَهُ	ضوءًا أمامَ الدينِ للإعظامِ
فأذبتَهُ فإذا المدامعُ أسطرٌ	والنورُ معناها البديعُ السامي

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات، ويوم يبعث حيًّا.

(انتهى المقال)

([3]) أعيان الشيعة: ج4 ص255.

([4]) طبقات أعلام الشيعة (نقباء البشر في القرن الرابع عشر)، 1/323.

([5]) ريحانة الأدب: 1/179

([6]) شعراء الغريّ، 2/438.

([7]) مقدمة كتاب الهدى إلى دين المصطفى، 1/16.

الهوامش

1 أعيان الشيعة ج4 ص261.

قاموس الموضوعات

د.حسن جعفر نور الدين

معجم الموضوعات

د. حسن جعفر نور الدين

ما المعجم الموضوعي؟

تنقسم المعاجم إلى نوعين، معاجم الألفاظ، وهي التي تسعى وراء تفسير معنى الكلمات والإجابة عن مدلولاتها، ومعاجم الموضوعات، وهي تُعنى بترتيب الألفاظ تبعًا للمعنى الذي تحمله، ففي مادة (نبات) مثلاً نضع جميع مسميات النبات وما يتعلق به، وفي مادة (لون)، يندرج تحتها كل ما تضمّه اللّغة من أسماء الألوان وأنواعها، وفي مادة الإنسان يُصار إلى معرفة أعضاء الجسد ومسمّياتها وأصولها، وكذلك في الأرض، فإنّنا نحاول معرفة أنواع الأرض وأوصافها.

وقد وردت رسائل مختلفة ومنذ القديم في هذا السّياق، تتناول كلّ رسالة منها موضوعًا مستقلاً، ككتاب الأنوار والإبل والشاء والنّخل والكرم وكتاب النبات والشّجر للأصمعي، وكتاب القوس والرّمح والمطر لأبي زيد الأنصاري، وكتاب الأبنية لابن قُتيبة.

ومما جاء في كتاب أسماء الأبنية لابن قُتيبة، قوله في رسالة الرّجل والمنزل:

من الأبنية: الخباء وهو من وبر أو صوف، ولا يكون من شَعرٍ، والبُرخذُ: كساء ضخم فيه خطوط يصلح للخباء وغيره. والكفاء: الشّقة التي تكون في مؤخر الخباء. والرّدهة: سترة في مؤخره أيضًا، والحمائر: حجارة تُنصب فوق البيت، ورواق البيت: سماواته.

وإذا كان ابن قُتيبة وغيره يتناولون المعاجم الموضوعاتية على هذا النحو بالتّفصيل، معتمدين على اللّغة الفصحى في الدّراسة، فإنّي في هذا المعجم سأعتمد المصطلحات الموضوعية المتداولة باللّغة العامية والفصحى في الوقت نفسه، وسأقسم المعجم إلى أبواب، ويتناول كل باب موضوعًا من الموضوعات معتمدًا التّرتيب الألفبائي في العرض، وسأبدأ بالإنسان، فأتناول أوّلاً جسده وما يتألّف منه مع ذكر معنى الكلمة وأصلها والمصدر الذي انطلقت منه.

وقد شُغف -كما قلت- معجميون عرب بهذا النوّع من المعجمات واسترسلوا وتعمّقوا كثيرًا في عرض معاني ألفاظ الموضوع، ومنهم الثعالبي في فقه الله، وابن سِيده في المخصص، علاوة على معاجمَ أخرى تتناول الفلك والطّبيعة والحياة والنبات والحيوان وغير ذلك.

فالمعجم الذي نُزمع تقديمه إذن معجم موضوعي من معجمات المعاني عند العرب، باللّهجتين العامية والفصحى، فما كان أصله فصيحًا من الألفاظ العامية ردّ إليه، وما كان دخيلاً نقل كما تداوله الناس وتُرك كما هو، مع الإشارة على الأصل الذي نشأ منه.

ولعل في هذه الطّريقة يكون المعجم قريبًا من الناس، لأنّه ينقل أحاديثهم المتداولة، ومعاني واصطلاحات وتعابير العامة في مسيرة حياتها اليومية وتاريخها الحضاري.

ومن مثل ألفاظ المعاني التي حوّلتها العامة إلى رموز استعاريّةٍ أو إلى كنايات مختلفة مثل قولهم إذا التبس الأمر عليهم وخفي الأمر (ضاعت الطاسة)، وصاحبنا (خِيَالُ صَحَرا) استعارة لمن (لا قيمة ولا دور له)، أو لمن يظن أنّه ذو تأثير وهو على غير هذه الصّفة. (وجوابو تحت باطو) بمعنى أنّه ذكي سريع الخاطر، و(شخص مدعوك) أي أحكمته التّجارب وعلّمه الزّمن، أو (فلان ماسك قلبو بإيدو) كناية عن شدّة الخوف. و(ابن حبوس) كناية عن الإجرام، و(روح فلان طويلة) كناية عن القدرة على الصّبر والتّحمل. و(فلان إجر كرسي) أي لا شأن له ولا قيمة.

وقِسّ على ذلك أمثلة كثيرة حملت أسماء لعناوين موضوعات شتى، وهي ومثيلاتها مثل لما يقوم عليه القاموس الموضوعي.

وسأحاول في هذا القاموس أن أحيط بكل مادة من موضوعات الحياة وأُشبعها درسًا وتفسيرًا، لكي يكون ما أمامنا معبّرًا تعبيرًا طبيعيًا عن سيرة الحياة كما هي، في ناسها وحيوانها ونباتها وآلاتها وأطعمتها وملابسها وأزيائها وأعراسها ومآتمها، وخُضَرِها وبُقولها، ومنازلها ومعادنها وأمطارها وبروقها ورعودها، وآلات النّقل فيها، وإلى ما هنالك من صور الوجود ومدار الحياة التي يُسيّر بها الإنسان أموره ويكتسب ثقافته وحضارته ويُنشئ علاقاته ويحدّد حاجياته ومتطلّباته.

مراجع ومصادر القاموس

ومن المراجع التي وجدتُ أنّها تساعدني على العمل وتُوفِّرُ لي الوقت في التفتيش والتّمحيص، وتُقدّم لي أضواء ساطعة واضحة، معجم محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني، ومعجم الألفاظ العامية لأنيس فريحة، وقاموس المصطلحات والتّعابير الشّعبية للدّكتور أحمد أبو سعد، وردِّ العاميّ إلى الفصيح للشيخ أحمد رضا، وغرائب اللهجة اللبنانية لرفائيل نخيلة، وكتابه الآخر غرائب اللغة العربية، علاوة على القاموس المحيط للفيروز أبادي، ولسان العرب لابن منظور، والمخصص لابن سِيده، وفقه اللّغة للثعالبي، ودائرة المعارف لفؤاد أفرام البستاني، والمعجم الوسيط؛ وغير ذلك.

موضوعات القاموس

سأحاول في هذا القاموس الإحاطة بمعظم موضوعات الحياة والوجود، رغبة مني في تقديم عمل منظّم شامل يستوعب معظم وجوه الحياة البشرية.

ومن هذه الموضوعات:

في الإنسان، الجسد وأعضائه.

في المصطلحات الخاصة بالأطفال.

في الأمراض وأنواعها وأسمائها.

في الصفات الخُلقية، في الألوان، في أسماء الأصوات.

في المصاهرات والقرابات وما يتعلق بها.

في ضروب الحيوان وأنواع السّمك والحشرات والطّير.

في الأشياء:

- البناء وأعماله وأدواته.

- المنازل والدّيار وأقسامها.

- في أدوات الزّراعة والحراثة.

- في الأرض، أجزائها وأقسامها وتسمياتها.

- في أدوات النّقل وأجزائها وأنواعها.

- في الخضار والفواكه والأثمار والبقول وسواها.

- في الأطعمة وأنواع المآكل والخبز ومشتقاته.

- في الحلويات وأشكالها والمشروبات والسّوائل.

- في الغناء وآلات الطرب والملابس والأزياء.

- في التّجارة والصّناعة.

- في الأعراس والمآتم وغيرها من المناسبات.

أخيرًا

ضمن هذه الاتجاهات نتبيّن أُطُر هذا القاموس الذي يُرتجى منه إضافة أشياء جديدة على ما سبق أن ظهر منها عبر قرون متتالية، وإن كنتُ أعلم أن معظم ما سأتصدى له مثبوت هنا وهناك في المراجع القديمة والمصادر الحديثة المعمّقة، إلا أنّني سأحاول أن أضيف قدر المستطاع جهودًا أخرى تكمّل مسيرة هؤلاء العلماء المعجميين المهرة، معترفًا بجميلهم وعملهم الذي حقق للّغة العربية قفزات كبرى في ميدان خدمة اللغة وضخّها بدم جديد يساعد على تحقيق مواكبتها لمستجدات الحضارة البشرية.

وإنّه لمن سعادتي أن تكون صفحات مجلة "رسالة النّجف" الموقّرة الرائعة فرحتي الجميلة لنشر فصول وأبواب هذا القاموس، موجّهًا الشّكر العميق للمشرفين عليها من علماءَ أعلامٍ أجلّاءَ ومسؤولين يقدّمون في جبل عامل -جبل العلماء والأدباء والمفكّرين- مجلة هادفة، هي سِفر قيّم يُشار إليه بالبَنَان.

الإنسان وجسده

إبهام أو بَاهِم:

أحد الأصابع، أو أكبر أصبع في اليد والقدم، مؤنّثةٌ، والجمع أباهيم وإبهامات، أو بواهم بالعامية.

والأصل إبهام، والإبهام أكبر إصبع في اليد أو الرّجل، وأصابع اليد هي: الإبهام - السُبَّابة - الوسطى - البنصر - الخنصر، فالإبهام في الطرف الأول، والخنصر في الطرف الثاني. وجمع باهم: بواهم.

وربما سُمّي باهم من بهم، والشيء المبهم: الغير واضح، ولكل إنسان بصمة إبهام خاصة به لا يشابهها أية بصمة في الكون في من خلق وفي من سيخلق إلى يوم القيامة، وهذا من لطف وعظمة الله جل شأنه، إذ بها يُعرف الشّخص الجاني من خلال بصمته، وتستخدم هذه الوسيلة في التّحقيق لاكتشاف الجرائم. ولذلك سمي هذا الأصبع إبهام لأنّ طبعته مبهمة عن غيره، ولا تُعرف بصمة عن بصمة إلا بإمعان النّظر والتّروي.

وقيل للإصبع إبهام لأنّها تُبهم الكف أي تطبق عليها(قاموسية)، وباهم عاميّةصابأصابع[1].

إجرْ:

أصلها "رجل"[2]، وحرّفتها العامية إلى (إجر) من باب الإبدال، وتُثنّيها العامية فتقول: (إجرتين)، وتُصغّرها بـ(جريتين) أو(إجرتين)، أو تجمعها على (جرين أو جِرَيّات أو إجْرِين)، وفي الفصحى: رِجلين وأرجل. والإجر: هي القدم بالفصحى وتصغيرها (أُجيره)، وتنسب إلى الأشياء، مثل: إجر الطاولة؛ إجر السّكَمْلا؛ إجر الكرسي.

والإجر: هي آلة التّنقل في جسم الّنقل في جسم الإنسان، بهما يتنقل ويسير ويؤمّن متطلّبات حياته، وهما تقودانه إلى ما يريد وحيث يريد. والرِّجل من أصل الفخذ إلى القدم ومنها الرَّجُل والرّجاله، ورَجُلٌ: كل شخصٍ تكَلَّمَ ومَشَى على رجلين.

إِذْنْ:

وهي الأُذن بالفصحى، وتجمع على آذان، وهي حاسة السمع عند المخلوقات، وتقول العامة: ذَيْني، وجمعها ذَيْنِين، ومثناها إذنْتَيْن أو ذَينْتَينْ.

ومنها الفعل: أذّن، والأذان وهو نقل الصّوت إلى الأذن، فهي الوسيلة التي تنقل الصوت إلى الدّماغ فيتصرّف الإنسان وفق الأثر الذي تحدثه والأذان: الإعلام، قال الشاعر:

صُمٌ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرتْ به	وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عندهم أذِنوا

و(أرأُوْشَت الإِذِنْ):

غضروف الأذن.

أُرْمِيِيٌّ:

تقال لبقايا الضِّرس المُتآكل القديم، كذلك يسمى بها جذع الشّجرة القديمة، وفي الفصحى [قرمية].

وأرم الشيء أو قرمه: أكل شيئًا منه، وهي الأصل، أو قرميته أي الجزء الباقي، والجمع أرامي، ومنها الأرومة.

وهناك تشابه في المعنى يبن أرم وقرم، وكلاهما من فصيح القول. فالأرم هو القطع، ويقال الأُرَّم: الأنياب والأضراس، و(أرم ما على المائدة): أكله. والأرم: الأكل، والقرم: الأكل الضّعيف، وأرض أرمِه: جرداء، لا تنبت شيئًا[3].

أَأْرَعْ:

في العامية وفي الفصحى أقرع، وأأرع: من ليس على رأسه شعرٌ مطلقًا، أرعة فلان: جمجمته الخالية من الشّعر، وتُجمع أأرع على إرعان أو إِرِعْ. و(أَرَّعُو): حلق له شعر رأسه.

نقول: رعت الماشية الحقل، حصدت ما فيه فجعلته أقرعًا.

إِرْعَ فيها الموسى: أي اجعلها قرعاء خالية ليس فيها شيء، إلا أنّ (إرعَ) هي من الرّعي، وإنّما ذكرتها لتطابق المعنى والمدلول في اللّفظتين...[4].

أست:

مؤخّرة الشّيء، والكلمة فارسية.

والأست في اللغة العربية تعني القِدَم، أي أُس الدّهر.

إِصْبَعْ:

جمع أصابع، وتقول العامية صابيع، وإصبع تذكر وتؤنث، وفيه لغات: الإِصبع والأُصبَع والأُصبُع، والأَصبِعْ والإِصْبِع والأُصْبُعْ، والإِصبُعْ، والأُصبوع: الأُنملة.

روي عن الرّسول (صلى الله عليه وآله) أنه دُميت إصبعه في حفر الخندق فقال:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميت	وفي سبيل الله ما لقيتْ [5]

أفندي:

تُقال للرجل الثري ذي المكانة الاجتماعية، وهي دخيلة، وأصلها تركي وهو لقب يمنحه الباب العالي.

إِمْعَا أو الأمعاء:

مفردها معي، وهي مصارين المعدة أو البطن.

إِيْدْ:

أو اليد، وتجمعها العامة على إيدين، دين، دَيّاتُن، وللمثنى إيدتين، ودينهن للجمع، وهي معروفة، من أطراف الأصابع حتى الكتف، وقيل (إيد) اللفظ الآرامي لليد، وكذلك في الحبشة، وهي بلفظها لهجة بعض العرب.

والفصحى هي (اليد)، وقد ورد في التّنزيل: **{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}- {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}** [6]. الأيْدِ: القوة، ورجل أيد: قويّ [7].

أَنْف:

هو المنخر والجمع آنُفٌ وآناف وأنوف، والعرب تسمي الأنف أنفين، وهو للإنسان وغيره، ورجل أنافي: عظيم الأنف، وأنفتُ الرّجل: ضربت أنفه.

وأنف من الأنفة، وهي الكبرياء، لأن الأنف يميل إلى الأعلى ويبرز أكثر من غيره في الوجه، والأنف: السيد؛ ورجل حميُّ الأنف: إذا كان يأنف أن يُضام [8].

قال ابن الرّومي في صاحب الأنف الطّويل:

لك أنفٌ يابنَ هندٍ أنتَ في البيتِ تصلي	أنِفتْ منه الأنوف وهو في السوقِ يطوف

بابُ البدنْ:

وهو فتحة الأست، ومخرج الثفل، عربية وهي الفصحى.

بَاطْ:

جمع إبط، وباطات، وهو باطن المنكب.

انخلع باطو؛ حاطّو تحت باطو؛ وفيها جاء أسم تأبّط شرًا، أي جعل الشّر تحت باطه، أو إبطه [9].

وباط الرّجل: ذَلّ بعد عِزّ وافتقرَ بعد غنى.

بَجْبُوجُو:

أي فمه، وهي لهجة عامية قليلة الاستعمال.

بَاْطِنه:

في اللغة السريرة، وفي الاصطلاح المعدة.

بَاعْ:

على مقدار مد اليدين؛ باعو طويل: أي مقدار ما تمدّ يده، أو ما بين الكف والكف إذا بسطهما الإنسان، مد باعو: باعو طويل [10].

بُأُّو أو بُقّو:

عامية، أي جماع فمه، فتح كل بأو: تقال للطّفل عندما يبكي بأعلى صوته.

البانْ:

أحد الأضراس، ولعله مقلوب عن (ناب)، أو البائة هي ما تبقى من الضّرس المقلوع.

باهم: تقدم في **(إبهام)**.

بَالُه أو بالو:

أي نفْسُه، ما تشغل بالك أي نفسك، شغلة بال: إذا كان الأمر مُغمًّا ومُقلقًا ومُحيّرًا.

بَدَنْ:

هو جسد الإنسان دون الرّأس، وقيل هو العضو، لكن الشائع هو البدن، والجمع أبدان، وبَدَّن الرّجل: أنّ وضعف، ورجل بادن: سمين جسيم[11].

بِزْ:

هو الثّدي، و(بِزُّ) المرأة: ثديها، والجمع بزاز، والكلمة دخيلة لعلها آرامية كما ذكر الأب نخله في كتابه غرائب اللغة العربية أو أنّهم أخذوه من الإبزاز وهو لغةُ: إرضاع المرأة الصّبي[12].

بَشَّرَةْ:

بشرة الإنسان، ذَكَرَه في اصطلاح العامة، والبشرة: لون جلدة الوجه أو الجسم، يقول العامة: بشرتو بيضاء أو حنطاويٍّ أو سودا، أو هي جلدة الرأّس والوجه والجسد التي عليها الشّعر.

والبشر: الإنسان، الواحد والجمع والمذكر والمؤنّث، وقد يثنّى كما جاء في التّنزيل: **{أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا}**[13]، والجمع أبشار[14].

وبنو آدم هم البشر مجموع خلق الله وعباده، يقع على الأنثى والذّكر والواحد والاثنين والجمع، لا يثنّى ولا يجمع، يقال: هي بشر، وهو بشر، وهما بشر، وهم بشر.

بْشِيمِه:

الوعاء الذي يكون فيه الجنين، مأخوذ من (المَشيمة) لتقارب الكلمتين في اللّفظ، ويسمّيها العامة (الخَلاصْ) مجازًا، لأنّه يخلص المرأة من آلام الحمل ومخاض الولادة.

ويستعملها العامة للنيل والشّتيمة أحيانًا، كناية عن الاستهتار والاستخفاف.

ولا أدري إن كان هناك علاقة بين الفعل (بَشَم) فصيح، وبين بشيمة. فبشم يعني الشّبع والتّخمة، قال المتنبّي في هجاء كافور الأخشيدي:

نامتْ نواطيرُ مصرَ عن ثَعالِبها	فقد بشمنْ وما تُغني العناقيد

ذلك على تقدير أنّ البشيمة تعني التّخمة بما وعت وحملت حتى استدعى الأمر ضرورة الولادة والوضع.

يتبع =

تتمة مقال = معجم الموضوعات

بَصبوص العين:

هو بؤبؤها الذي منه تنظر وتحدّق، وترى العامة أنّ بصبوص من بصَّ أي حدّق جيدًا، وسمّيت العين: البصّاصة لأنها تبصّ، بمعنى تنظر بإمعان وتحديق، وبصّ: أضاء ولمع وأشرق.

وجمع بصبوص بصابيص، يقابلها في الفصحى (البؤبؤ) الذي هو سواد العين الذي هو مصدر الرّؤية عند الإنسان.

وفي اللّغة: بصّ القوم بصيصًا: صوّب؛ والبصيص: البريق؛ وبَصّ بصيصًا: أضاء؛ والتبصيص: التملق([15]).

بَطّة الإجر:

هكذا تقول العامة، وهي عضلة الساق، وسميت بطّة على التّشبيه بالبطّة المعروفة في الشكل والملمس، ويقولون: "بَطّةْ إِجْرُوْ، لشبهها بالبطة. وهذا التّعبير مصطلح عامي، أما بطّة الرّجل لغة هي الحمأة.

وتُشَبّه المرأة أحيانًا بالبطّة، وجمع بطّة: بطات.

وفي اللّغة: بطَّ الجرح ُإذا شَقّه، وفي الحديث أنّه دخل على رجل به ورم فما برح حتى بُطَّ، فالبطّ: شقّ الدُّمّل والخراج ونحوها.

والبط هو الإوزّ، واحدته بطّة، أعجمي معرب، فهو عند العرب الإوزّ، صغاره وكباره، والبطبطة: صوت البطّ([16]).

بطة الفخذ:

أي ربلة الفخذ، وهما ربلتان.

وفي اللّسان: الرّبلة تسكن وتحرّك في بائها، والتّحريك أفصح، وهي كلّ لحمة غليظة، وقيل هي باطن الفخذ وجمعها: الرّبلات.

قال ثّعلب: الرّبلات أصول الفخذ، وامرأة ربلة وربلاء ضخمة الرّبلات([17]).

بطن:

قاموسية، وهي المَعِدَة، والبطن خلاف الظّهر، وجوف كلّ شيء جمع بطون([18]).

بنات الدَّيْنَين:

هما اللّوزتان، عبارة عن لحمتين ملتصقتين في جانبي الحلق قرب اللّهاة، وهما على شكل لوزتين وجمعهما الدّينات ومفردها: بنت الدّينة، هذا في العامية، أما في الفصحى فهي النّكفة.

واسم "بنات" عائدٌ إلى أنّ هاتين اللّوزتين قريبتين من الأذن وعلى شكلها، ومن هنا جاءت هذه التّسمية على لسان العامة.

وفي اللّسان: النّكَف: تَنْحِيَتُكَ الدّمع عن خدّيك بإصبعك.

والنّكفة: غُدّة صغيرة، والنّكفتان: اللّوزتان، وغدّتان ربما سقطتا من وجع الحلق فظهر لها حجم، أو غدّتان تكتنفان الحلقوم في أصل اللحمي([19]).

بُوز:

هو الفم إذا مطّ ساعة الغضب أو تعبيرًا عن التّعجب أو الرّد الناتج عن الحيرة، جمع بواز وبزّان و أبواز، وهي فارسية عُرّبت قديمًا، تقول العامة للّذي يزعل ولا يعجبه شيء: بَوّز شفافو، مبوّز.

وفي اللّغة: بازَ يبوزُ، إذا زال من مكان إلى مكان آمنًا([20]).

وبوز هي في الأصل مُقدّم أنف الدابة وفمها، استعيرت للإنسان وأُطلقت على فمه ازدراءً([21]).

بوع:

قاموسية: -تحديدًا- العظمة التي تلي إبهام الرّجل، هذا المتداول شعبيًا، إنّما في اللّغة: الباع والبُوع والبَوْع: مسافة ما بين الكفّين إذا بسطتهما، والجمع أبواع أو قدْرُ مَدُّ اليدين وما بينهما من البدن. والباع: السّعة في المكارم، ورجل طويل الباع: أي الجسم([22]).

بَيْث ولادها:

أي مكان نشوء الجنين، وهو الرّحم.

وهو المنزل الأوّلي الذي ينشأ فيه الإنسان من المُضغة حتى لحظة الولادة.

والبيت له عدّة اتجاهات: بيت الشّعر وبيت الشِّعر؛ وبيت العرب: شرفها، والبيت: القبر، وسَمَّى الله تعالى الكعبة: بيت الله الحرام... إلخ.

بَيْضَاتْ:

جمع بيضة وهي الخصية التي تتكون من بيضتين، ولكن العامة تُعبّر بالجمع وهي تقصد المثنى.

ومما يضاف إلى البيضة: بيضة البلد (السيد)، بيضة السّنام: شحمته، بيضة الجنين: أصله؛ بيضة القوم: وسطهم، أو ساحتهم؛ وبيضة الخِدر: الجارية([23]).

تامور:

قاموسية وهو غلاف القلب، وحبّة القلب ودمه، وتامور الرّجل: قلبه([24]).

تِمْ:

عامية، وهي تحريف فم (الفصحى) وحصل ذلك بفعل الإبدال، لتقارب المخارج الصّوتية لكلا الحرفين.

الترقوة أو الترقوتان:

العظمان المشرفان بين ثغرة النّحر والعاتق، وتكون للناس وغيرهم، أو أّن التّرقوة عظمٌ وَصَل بين ثغرة النّحر والعاتق من الجانبين، وجمعها التّراقي (قاموسية).

جاء في التّنزيل قوله تعالى: **{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ}**([25])، وجاء في الحديث: "يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم وتراقيهم"([26]).

تمره:

عند العامة رأس الذّكر، وهو ما يكشف عنه الختان في عضو التّذكير وأصلها الكمره (قاموسية)، وقد يطلقونها على عضو التّذكير عمومًا، وقد استبدلت الكاف بالتاء لجهة الإبدال، من خلال تقارب التاء والكاف في حركة النّطق.

ولعل استعمال العامة "تمره" لحديثهم عن العضو الذّكري ناتج عن التّشابه بين العضو وثمرة البلح عندما تصبح تمرًا([27]).

تغره:

الثّغرة: الدائرة تحت الأنف في وسط الشّفة العلياء، أو النّقره التي في وسط الشّفة العليا(قاموسية) ([28]).

تن:

التَّنُّ والتِّنّ: الصّبي الذي قصعه المرض فلا يشِبّ. وقد أتنّه المرض.

والتن: الشّخص والمِثال([29]).

تنحيره:

(عامية): الرأس الكبير([30]).

جَبْهَة:

جمع جباه وهي قاموسية، والجبهة موضع السّجود، وهي مستوى ما بين الحاجبين على الناصية.

وجبهة القوم: سيّدهم؛ والجبهة من الناس: الجماعة؛ وجَبَهَ الرّجل: ردَّه عن حاجته؛ ورجل أجبه: واسع الجبهة حسنها([31]).

جبين:

من جبن، والجبين فوق الصّدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، والجبينان: حرفان مكتنفا الجبهة من جانبيها فيما بين الحاجبين مُصعّدًا إلى قصاص الشّعر، وقيل: حروف الجبهة ما بين الصّدغين متصلاً عدا الناصية، والجبهتان: الجبينان، والجبين مذكّر لا غير، والجمع أجبن وأجبِنة وجُبُنْ([32]).

جِتّه:

أو الجثّة، على سبيل التّحول، ولهجة العامة، وهي شخص الإنسان، وتطلق على الجسد عادة عندما يموت.

تطلق عند العامة على البدن كلّه، جمع جِتت.

جِراب البيضات:

قاموسية، وهي وعاء البيضتين أو الخصيتين، والعامة تفتحه فتقول جَراب، والجمع أجربه، وجُرُبْ، وجُرْب.

والجراب: وعاء من إهاب الشّاء، لا يوعى فيه إلا يابس، وجراب البئر: اتساعها وقيل جوفها من أعلاها إلى أسفلها([33]).

جربوع:

الرّجل الهزيل الضّعيف (عامية)([34]).

جمجمة:

قاموسية عظم الرأس المشتمل على الدّماغ، والجمجمة: القحف، أو العظم الذي فيه الدّماغ، وجمعه جُمجُمٌ، ورأى ابن الأعرابي أن عظام الرأس كلها جمجمة وأعلاها الهامة.

وفي اللّغة أيضًا الجُمجمة: رؤساء القوم؛ وجماجم القوم: ساداتهم. والجمجمة أيضًا: ضرب من المكاييل، وهي ستون من الإبل، وقدح من خشب، وهي البئر تحفر في السّبخة([35]).

جنب:

قاموسية، الجنب والجنبة والجانب: شق الإنسان وغيره، والجمع جُنوب، وجوانب، جنائب، والأخيرة نادرة، وجانَبَهُ: صار إلى جنبه؛ والجنب: معظم الشّيء وأكثره([36]).

جوزة الحلق:

الجوزة: وهي العظم الذي يأتي على شكل جوزة نافرة، تقع في أعلى الصّدر بين ثغرة النّحر والعاتق، وهي مولدة، تسمى في اللّغة (التُّرْقُوَةْ)، والعاتق: ما بين المنكب والعنق.

من شتائم النّسوة لأولادهنّ: يطق جوزتك؛ ما تطق جوزتك ما بعطيك، وربما سميت جوزة، لأنّها تشبه بشكلها ثمر الجوز الذي ينبت على ضفاف الأنهار وفي أي مكان آخر.

ويخلط بعض النّسوة أحيانًا بين الجيم والزاي، فيقولون بدل جوزتك: زوجتك، وبدل زوجتك: جوزتك، عن طريق الإبدال لتشابه الحرفين في مكان النطق ([37]).

جوف:

داخل الشّيء، والجوف تعني البطن كما ذكر معاجم اللّغة، وهي تختصّ بالإنسان والحيوان، جاء في التّنزيل عن النّبي يونس (عليه السلام) والحوت **{فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}**([38])، وقيل إنه مكث في جوفه أربعين يومًا([39]).

وبالتالي، فالجوف ما انطبقت عليه الكتفان والعضدان والأضلاع والصقلان، وجمعها أجواف، وجوف كلّ شيء: داخله، وجوف: فصيحة.

والصقلان جمع صقل وهو الجنب ([40]).

حِزْدَبَّةْ:

تَقَوُّسَ الظّهر، أو خروج الظّهر ودخول البطن والصدر وهي عامية ويقال لها بالفصحى (الحدبة) فنطقوها بالراء ربما تسهيلاً للفظها.

أو تقول العامة: حَزْدَبْ أي صار له حردبه، أو حودب واحدودب.

قال ابن الرومي في هجاء الرّجل المحدودب صاحب الحدبة:

قَصُرَتْ أخادِعُه وغارَ قذاله	فكأنَّه مُتربص أن يُصْفعا
وكأنما صُفعت قفاه مرةً	فأحسَّ ثانيةً لها فتجمّعا

فالتجمّع هذا هو الحردبة أو الاحديداب.

فالحدب دخول الصدر وخروج الظهر، والقَعْس: دخول الظهر وخروج الصدر.

والحدب أيضًا ما ارتفع وغلظ من الظهر، وحالةٌ حدباء: لا يَطمئن لها صاحبها([41]).

حَزوءة أو حزُّوقة:

ما يتردد من صوت ينبعث من الحنجرة لعدة مرات، (عامية) ولعلها من الفصحى (حزق)؛ حزقه حزقًا: عصبه وضغطه، أو الشدّ البليغ والتضييق، ولعل الحزوقة ناتجة عن شد وضيق يصدر عنه هذا الصوت.

ومن الخرافات الشائعة أن يقال لمن تصيبه الحزوقة أن يشرب نقاطًا من الماء فتذهب عنه.

حُشاشه:

هي الروح أو هي روح القلب ورمق حياة النفس، وكل بقيّةٍ حشاشة، والحُشاش: بقية الروح في المريض، من الفعل حشش (قاموسية)([42]).

الحَشَفة:

لغةً (الكمرة)، ما فوق الختان، وهي رأس الذكر، وفي حديث علي (عليه السلام): في الحشفة الدِّيَة، وهي رأس الذكر إذا قطعها إنسان وجبت عليه الدية كاملة،

ويقال لأذن الإنسان إذا يبست فتقبّضت: قد استحشفت.

وكذلك ضرع الأنثى إذا تقلّص وتقبّض قد استحشف.

والحَشَف كذلك: أردأ التّمر، أو اليابس الفاسد من التّمر.

والحشف: الضّرع البالي([43]).

الحرقفة أو الحرقفتان:

رؤوس أعالي الوركين، أو مجتمع رأس الفخذ ورأس الورك حيث يلتقيان من ظاهر.

والحرقفة: رأس الورك وهي عظم الحَجَبه، والجمع: الحراقف (قاموسية)([44]).

حُضْن:

مجتمع الصّدر، أو هو الصّدر والعضدان وما بينهما، وحَضَن الشّيء ضمّه إلى صدره وحنا عليه بعضديه.

والحضن مصدر الحنان والعطف (قاموسية).

حُقْ أو الأصح الحُق:

وهو رأس الوّرك، أو هو أصل الورك الذي فيه عظم رأس الفخذ؛ والحُق أيضًا: النُقرة التي في رأس الكتف؛ والحُق: رأس العضد الذي فيه الوابلة، والوابلة: طرف رأس العضد والفخذ، وقيل طرف الكتف([45]) و(حُق) قاموسية.

وقد اعتادت العامة أن تقول (حِق)؛ ومن شتائم النّسوة (يرمي حِأّك)، أي يرمي حِقّك([46]).

أما(الحِق) لغة فهي من أولاد الإبل إذا بلغ أن يُركب ويُحمل عليه، والأنثى حقّة وحِقٌ أيضًا. ([47]) و(الحِق) الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرّابعة.

(انتهي المقال)

([15]) اللسان/ 7؛ فريحة، معجم الألفاظ العامية ص11 مكتبة لبنان 1995م.

([16]) اللسان 7/261؛ أبو سعد.

([17]) اللسان 11/263؛ المصطلحات الشّعبية ص88.

([18]) اللّسان 13/52؛ المصطلحات الشّعبية ص88.

([19]) اللّسان 9/341؛ أحمد أبو سعد، قاموس المصطلحات الشّعبية ص88.

([20]) اللّسان 5/314؛ أحمد أبو سعد، قاموس المصطلحات الشّعبية ص88.

([21]) أحمد أبو سعد؛ قاموس المصطلحات الشّعبية ص88.

([22]) اللّسان 8/21.

([23]) اللسان 4/94.

([24]) اللّسان 4/94.

([25]) سورة القيامة: 26.

([26]) اللسان 10/32.

([27]) أبو سعد المصطلحات الشّعبية ص88.

([28]) اللسان 4/92.

([29]) اللسان 13/74.

([30]) فريحة، الألفاظ العامية ص23.

([31]) لسان العرب 13/483.

([32]) اللسان 13/85.

([33]) اللسان 1/261.

([34]) فريحة، الألفاظ العامية،ص 25؛ أبو سعد،88.

([35]) لسان العرب 12/110؛ أبو سعد، قاموس المصطلحات الشّعبية ص88 و89.

([36]) اللسان 1/275؛ أبو سعد، قاموس المصطلحات الشّعبية ص88 و89.

([37]) أحمد أبو سعد، المصطلحات الشّعبية، 89.

([38]) الصافات:142.

([39]) البداية والنهاية،ابن كثير، 1/269 (ط1، 1408هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

([40]) اللسان 11/380.

([41]) اللسان: 1/ 300 و301.

([42]) اللسان: 6/284.

([43]) لسان العرب- 9/47؛ أبو سعد المصطلحات الشّعبية، ص89.

([44]) لسان العرب 9/46؛ أبو سعد المصطلحات الشّعبية، ص89.

([45]) اللسان 11/721.

([46]) لسان العرب 1/53 و54؛ أبو سعد المصطلحات الشّعبية، ص89.

([47]) اللسان 10/ 54.

الهوامش

1 _____ () لسان العرب 12/59، دار صادر بيروت.

2 لسان العرب 11/217.

3 اللّسان 12/14.

4 اللسان 8/268.

5 لسان العرب 8/192.

6 الآية الأولى من سورة الفتح من الآية 10، والثانية من سورة الذاريات من الآية 47.

7 اللسان 3/76؛ أبو سعد المصطلحات الشّعبية، ص87، مكتبة لبنان 1987م.

8 اللسان 9/14 و15.

9 اللسان 7/261 إلى 266.

10 اللسان 8/22.

11 اللسان 13/48.

12 اللسان 5/313.

13 المؤمنون من الآية 47.

14 اللسان 4/59؛ أبو سعد المصطلحات الشّعبية ص88.

رسالة النجف — العدد الثالث عشر

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة